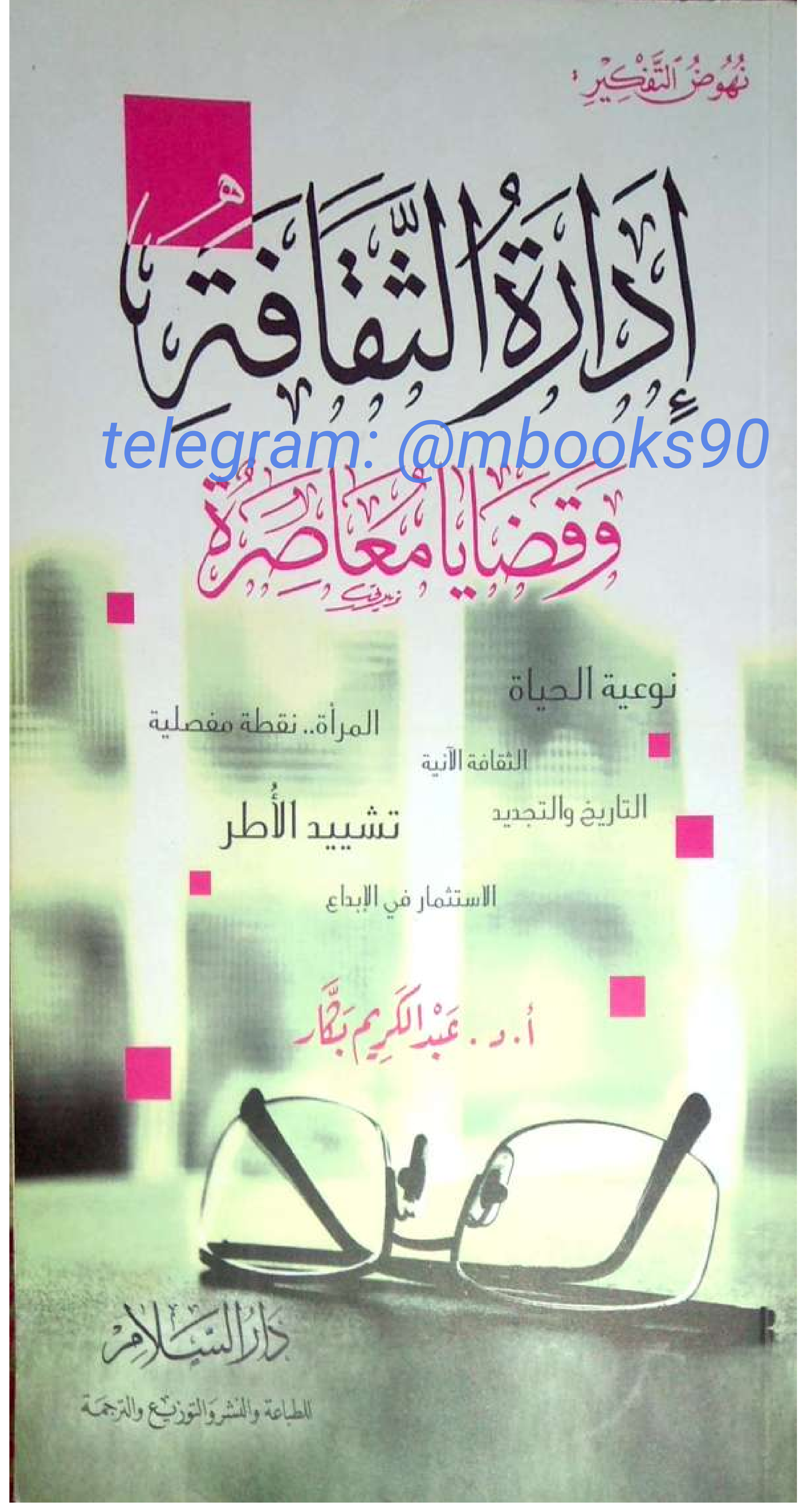


نهوض التفكير
إدارة الثقافة
telegram: @mbooks90
وقضايا معاصرة
نوعية الحياة
المرأة.. نقطة مفصلية
الثقافة الآنية
التاريخ والتجديد
تشييد الأطر
الاستثمار في الإبداع
أ. د. عبد الكريم بكّار
دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

نهوض التفكير

إدارة الثقافة وقضايا معاصرة

تأليف

أ. د. عبد الكريم بكار

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

* * *

قبل أن نبدأ:

لا خوف من المستقبل
ما دُمنا نؤمن ونُفكِّر ونُبدع

نُقدِّم هذه الإسهامات الجادة التي تمرِّن العقل وتُنشِّط الفهم وتفكِّر في المفقود بعيدًا عن الاستثناء والضرورة وحالات الطوارئ وشعارات التصدي والمواجهة والمجابهة؛ فباسم هذه الكلمات مُورِسَ استغلال وجرائم بحق شعوب كاملة، وألقي بالإنسان في غياهب ضياع في ضياع.

إنّنا نكره فكر الضرورة التي أملتها جوقة بعض السلاطين ووعّاظهم من المثقّفين؛ فهي كما يقول رئيس الوزراء السابق وليم بت (١٧٥٩م - ١٨٠٦م): « ذريعة كل انتهاك للحرية الإنسانية، إنها حجة الطغاة، إنها عقيدة العبيد » [1].

بل نفهم أن الواجب علينا إزاء تحديات الراهن التي يمليها علينا القهر الداخلي والظلم الخارجي، التقدُّم - وبإلحاح - إلى تطبيق المقولة: « المشاريع الصغيرة الواقعية خير من الشعارات الكبيرة الخيالية ».

وهذه ليست ضرورة بل واجب حقيقي، وقد أشار إلى

---

(١) قاموس الأقوال المأثورة ، إعداد جورج خوري.

هذا الخطيب الدمشقي، فقال المهندس أحمد معاذ: « ليكن لكل منا مشروعه الخاص الصغير، ودعونا لا ننتظر الأمور الخارقة؛ لأن حركة التاريخ كما يقول مالك بن نبي رَحِمَهُ اللَّهُ: إنما تصنعها آلاف الجهود الصغيرة التي لا نُلقي لها بالًا، وليكن مشروعنا الخاص الصغير في أي درب مباح؛ فإن موعود الله تعالى حق: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] »[١].

إن الطموح كبير في بناء ثقافة تحرِّض على الوعي وتخرج بالإنسان من الكلالة إلى الفاعلية والإنجاز، وهي المدخل الرئيس لبناء نهوض وتحرر إرادة.

إن التفكير في تفكيرنا وخارطتنا الجغرافية الفكرية والتكلُّم بصراحة عن دوائر التأثير الحقيقية والقراءة في منظوماتنا البنائية الفكرية هو الخطوة الأولى للخروج من الهوان المبصر؛ فجذر المشكلة يكمن في مرجعيات المعنى، وأنماط الرؤية، أو في شبكات الفهم، وسلم القيم، - أي في عالم الفكر بنظامه ومسبقاته أو بقوالبه أو أحكامه أو بإداراته أو سياسته - ولا عجب؛ فالتفكير الذي هو حيلة الإنسان سلاح ذو حدّين قد نصنع به المعجزة، ونخرق الشرط، ونفك الطوق، لكي ننتج المعرفة والثروة والقوة بقدر ما نمارس علاقتنا بوجودنا

(١) www. darbuna.net.

بصورة حية وخصبة، خلّاقة وبناءة وفعّالة وراهنة، وقد يولد التفكير العجز والخواء، أو الجهل والعماء، أو التسلط والاستبداد، وذلك بقدر ما نتعامل مع أفكارنا بصورة متحجّرة ومغلقة، أو أحادية وحتمية، أو طوباوية وفردوسية، وبقدر ما نتعامل مع الأحداث والحقائق على سبيل التبسيط، والتهوين، أو التهويل، والتضليل، أو التلفيق والتزييف، أو التهويم، والتشبيح.

وهكذا فأزماتنا وكوارثنا ليس مصدرها الآخرين أو الأقدار فحسب؛ بل أفكارنا بشكل خاص كما تتجسد في العقليات والمرجعيات، والنماذج والمقولات والتصنيفات، والعقائد والطقوس، التي تهيمن على المشهد الثقافي العربي، وتتحكم في الخطابات، التي في غالبها تنتج العوائق والمآزق، وتلغم المساعي الوجودية والمشاريع الحضارية.

وقد أوضح الدكتور عبد الكريم نقاطًا مهمة فبيّن قائلًا: إننا معاشر المشتغلين بصناعة الثقافة، ربما كنّا مبالغين في تقدير دورنا في نهضة الأمة وإصلاح شأنها. لكن هذا لا يمنع من الاستمرار في العمل، إنما مع ضرورة البحث عن الوسائل والأُطر التي تحوّل الأفكار الجيدة من كلام منطقي منمّق إلى تربة خصبة تحتضن الشجرات الباسقة.

إن الفكرة تكون كالعاصفة العاتية إذا كانت تلخيصًا

لتفاعلات مرحلة كاملة، وتكون أشبه بسفينة عملاقة إذا تبنَّتها دولة، وتكون بمثابة نور متوهِّج إذا تبنَّتها جماعة، وأخذت تربّي أبناءها عليها.

ثم قال في مقاربة ثانية: ربما احتاجت كل فكرة من الأفكار الأساسية إلى مؤسسة تنهض إلى تحويلها إلى فعاليات وأنشطة، وتجسِّدها في حركة اجتماعية واعية، وتوفِّر لها إلى جانب ذلك آفاقًا جديدة للنمو والتطوّر، وتصقلها من خلال النقد البصير.

إذا كانت لدينا فكرة جوهرية في تنمية الإبداع - مثلًا - فإن تأثير هذه الفكرة في إيجاد طليعة مبدعة سيكون قريبًا من الصفر. وسيكون الأمر مختلفًا إذا أنشأنا بناء على تلك الفكرة مؤسسة لرعاية الموهوبين واكتشاف المواهب.

وإذا كان لدينا أفكار أساسية حول أهمية التربية المبكرة في تكوين شخصية الطفل، فإن علينا أن ننشئ سلسلة من رياض الأطفال النموذجية التي تتجسد فيها أفكارنا التربوية.

إنها رؤية الإبصار والتنوير الداخلي بدل شيوع مفردات الهجاء الكيدي التناحري الذي يشتم ويتوعد، والذي استهزأ به الخطيب المهندس معاذ فجرح مداويًا، وصرّح مناديًا: « ليشق الخطباء حناجرهم في لعن أعدائنا، وليمتلئ الشارع بالهتافات، وليُصعِّد الإعلام سخطه واستنفاره، فكل ذلك

لا يقفز فوق المقدمات الصحيحة. إن الأقدام الغازية لم تأت بسبب قوتها؛ بل بسبب الظلم الذي عشعش في بلاد العرب والمسلمين، فقتل الألوف المؤلفة، وهجّرها وشرّدها وسجنها، وعطّل الطاقات، ونهب الشعوب، وقتل الإبداع والمبادرة، وضيّق على كل ذي نشاط وفعالية، ثم قام الظلم بكل صفاقة يتغنّى بالبناء والنهضة والتطور، بعد أن تفرّجت الأمم الذبيحة برعب ولعقود على فلذات أكبادها، يُذبح الواحد منهم تلو الآخر ولا يجرؤ أحد على الكلام في بلاد الصمت الطويل، وإن سمح بشيء فهو من تتمات أصول اللعب والتدويخ والاستيعاب للشعوب المسكينة الغافلة ».

ويتابع رئيس جمعية التمدن الإسلامي بدمشق، فيشير إلى أنه: « حاول البعض الخروج من هذه المتاهات المرعبة حقًّا، فوقع بعضهم في فكر تكفيري دموي - وهو ما نرفضه تمامًا - أراق حتى الآن من دماء المسلمين الأبرياء ما لم يصبه من دماء المحتلين والغاصبين؛ هذا عمل مَن قد يُظن ببعضهم الإخلاص، فما بالك بمن هم ضحايا الاختراقات المخابراتية التي لم تعد خافية على متتبع للأمور، والتي تتعمد كل يوم إعطاء المبرر لزيادة توحّش الظالمين، وزج الأمم والشعوب التي تجهل الإسلام وراءهم من خلال زرع الكراهية للإسلام وأهله في قلوب أبناء تلك الشعوب، وتنفيرهم من الإسلام وأهله، وبين يدي تلك الأجهزة المخابراتية أطراف ساذجة متقدة

العاطفة سقيمة الإدراك، تقوم بما عجزت عنه أصابع الحاقدين على الأمة خلال عقود، وكذلك اقتصار الفهم التناصري على مبدأ تسييس الدين فقط ».

وقد اشتكى من هذا الشيخ راشد الغنوشي في كتاب (تمرد على الممنوع) فقال: « والحقيقة أن جوهر المشروع الإسلامي ليس سياسيًا (هو الدولة)، وإنما هو فكري اجتماعي تربوي متجه أساسًا إلى الفرد وإلى المجتمع وإلى الناس كافة، وعلى أساس ما ينجزه على هذا الصعيد يقاس نجاحه أو فشله، وهو ما يجعل الحرية والعدالة على رأس مطالبه باعتبارهما قيمة أساسية في الإسلام، ومدخلًا لا بديل عنه لكل إصلاح ».

والعوائق الداخلية، عائق التجزئة، وعوائق فكر التغريب وفكر الانحطاط، ومن هذا الأخير قلة رسوخ فكر الحرية والتعددية في موروثنا بما يجعل التوصل صعبًا إلى الإجماع الضروري لكل اجتماع وكل تغيير، وكذا إدارة الحوار والتعامل مع الاختلاف سلميًا، بحثًا عن المشترك. وما حصل بين الجماعات الأفغانية الجهادية المنتصرة من تقاتل استكمل تدمير البلاد، وأسلمها لأشد عناصر الإسلام تخلفًا (طالبان) الذين انتهوا بحماقاتهم إلى توجيه الدعوة إلى الأمريكان.

وليس بعيدًا من ذلك ما انتهى إليه أهل المشروع

الإسلامي في السودان من تنازع، وذهب بريحهم، ودفعهم إلى التسابق على الاستظهار بعضهم على بعض بالتمرد وبالخارج، كل ذلك ثمرة لهزال بضاعتنا في ثقافة الحرية والتعددية وفن إدارة الاختلاف سلميًا، وهو ما نجح فيها الغرب بعد عصور من الفتن والتقاتل، فطفق يتقدّم بثبات صوب الإجماع متجاوزًا صارفًا الأنظار عن مواطن الاختلاف، يهملها مرة ويدعها لعامل الزمن يعالجها أحيانًا أخرى، بينما يتوقّف قومنا عند كل نقطة اختلاف فتتضخّم عندهم حتى تغشي أبصارهم عن ساحات الوفاق الفسيحة.

ومع ذلك فالثابت أن الأمة تتقدم وتقوى رغم أن الدولة فيها تزداد ضعفًا وخواء من الشرعية وتعويلًا أكثر على العنف مصدرًا للشرعية معززًا بالظهير الخارجي.

الإسلام واقع اليوم رغم استمرار نقاط الضعف الداخلي والعوائق الخارجية على سلم تاريخي صاعد، بينما مذاهب العلمنة في حالة ذبول وشيخوخة رغم أنها في سدة الحكم على الصعيد العالمي والإسلام في المعارضة، ولكنه المعارضة الرئيسية، وستعمل سنّة التداول عملها. قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وهو تداول لا يعني الإلغاء، ولكنه استيعاب لما هناك من كسب، وتشكيله في صيغ حضارية جديدة تتكفل بحل

مشكلات مستعصية وضخ دماء جديدة في جسم الحضارة العالمية. ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الروم: ٤، ٥].

علينا أن نستمع إلى الاتباع الواعي الذي أنتج المنهج الإبداعي؛ حيث يذكر الأستاذ أحمد معاذ الخطيب أن المقدّمات غير الصحيحة لا تثمر إلّا عواقب وخيمة، وسنن اللَّه تعالى لا تحابي أحدًا، وعلى المؤمنين ألّا يقعوا في فخاخ الجهل السنني.

ألا يحق لنا أن نسأل: كيف ولماذا؟ فإن التباكي الذي عودتنا عليه وسائل الإعلام حتى قتلت في النفوس كلمات كثيرة لكثرة مضغها له، كل ذلك لم يقدم للأمة ولا رأس دبوس تعتمد عليه، وإذا كنا نرفض الفكر الدموي والتكفيري، وإذا كنّا ضعفاء عاجزين فماذا نفعل، وهل نترك الشلل والقلق والخمول يضرب جذوره فينا؟ اللَّهم لا!

انهارت الأمة عسكريًّا وسياسيًّا في أوقات مختلفة، ولكن لم يستطع أحد تدميرها حضاريًّا وأخلاقيًّا وإنسانيًّا، فقد بقيت تضخ الخير والإيمان والحضارة في جلسة علم، وموقف حق، ومساعدة محتاج، ومؤسسة وقفية، وسبيل ماء، وتحقيق مسألة، وإكرام جار، وعابر سبيل، وبر والدين، وحنو على رحم وأخت وضعيف وصغير وبائس، وكَرَم فطري، وإشفاق

من معصية الله بنعمه، وبقيت الأمة تتنفس الإسلام روحًا اجتماعية وتسامحًا وتدينًا فطريًا لا تعقيد فيه ولا تكفير، وبقيت فطرتها نقية النسب كريمة الأصول لا ترضى الظلم، ولكنها تسلك لدفعه بدل الشتم والصياح الذي عودنا البعض عليه في هذا الزمن الأعجف، والفكر التكفيري الذي ينتسب إليه آخرون، تسلك الصبر والعمل البطيء والإصرار العنيد، وتبث روحها في إتقان عملها وسلامة صدرها وابتداعها أساليب البحث عن البقاء لا في الجحور بل في ساحة مسجد، وشموخ مئذنة، وقدوة من عالم صالح يأبى النفاق، وفي مصلح هنا، ومؤلّف هناك، وصانع وسبّاك وزارع وتاجر أمين وفلاح نشيط، وفي وشوشات مشربية خشبية عتيقة، وعناق سيباط لآخر، ودفء حارة، وهمسات ساقية، واستقامة شباب، وعفة فتيات، وفي فوح زنبقة، وأريج ليمونة شامية تهفو لنخلة في بغداد، وإباء لأهل المغرب قارفه حنين ترعة مصرية، مع طيب أهل السودان، ورقة أهل اليمن، إلى النبع الأول في بطاح مكة معقد الخير والضياء.

ما بين أيدينا أوراق فكر وتربية، شارك المؤلف أمته واجب التفكير في النهوض عبر محافل إعلامية مرموقة، عودة إلى الذات من أجل إيقاظ الوعي والتفكير في المفقود، وإحياء للانضباط الشخصي والمبادرة الذاتية: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ

صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١].

الإيمان يرشد إلى الحق فهو كالنور في إيضاح السبيل، والمنغمس في الكفر متحير في الظلمة [1].

كتاب إيمان ومسؤولية وخروج على تحويل الإنسان إلى آلة للعلف أو للخلف.

شكرَ اللهُ سعي المؤلف وحيّا ربنا سبحانه الروح الطيّبة المبادرة التي تسعى نحو عقل النص وعقل الواقع.

والله من وراء القصد.

عَلاء الدين آل رَشي

• • •

(١) تفسير التحرير والتنوير (٦/١٨٠).

المعاصرة

ليس من العسير على الإنسان أن يعيش في عصرين مختلفين؛ حيث إنّك تجد كثيرين من الناس يعيشون في القرن الخامس عشر الهجري على مستوى الاستهلاك واستخدام الأشياء، ويعيشون وفق ما كان عليه الحال في القرن الثالث عشر على مستوى الأفكار والمفاهيم والرؤى، وتنظيم الذات، وفهم العلاقات الدولية ...

وقد ذكر بعض الباحثين - على سبيل المثال - أنّ وضعية كثير من الصناعات في بعض البلدان النامية لا تختلف عن الوضعية التي كانت سائدة في أوروبة في القرن التاسع عشر.

وهذا يعود إلى أنّ المعاصرة على المستويات الفكرية والعلميّة والتقنيّة تحتاج إلى العديد من الأدوات والإمكانات التي قد لا يستطيع الحصول عليها على قدم المساواة كل أولئك الذين يعيشون في بلد واحد، أو زمان واحد. فما أهم سمات الإنسان المسلم الذي يرغب في أن يعيش روح عصره وعقله، ويخوض غمار أحداثه، ويُسهم في توجيه مسيرته؟

في الحقيقة، في إمكاننا أن نذكر الكثير من ذلك، لكن سأشير على وجه الإيجاز إلى بعض النقاط المهمة:

- **التمسُّك بالأصول والثوابت والمبادئ الكلية:**

حيث إن العولمة تريد أن يتحرك الناس في وسط هلامي مائع، هائمين على وجوههم حتى تسهل السيطرة عليهم. ولن يخلو العالم في يوم من الأيام من الثوابت والمرتكزات، لكنْ هناك فرق كبير بين أصول تستند إلى الوحي وأصول يصنعها أرباب رأس المال والخبراء والمختصّون.

وحتّى تؤدّي الأصول وظائفها في توجيه الحركة الاجتماعية وفي تأسيس المعايير الأخلاقية، فإن عليها أن تتّسم بالجمود والتصلُّب، وإلّا فإنّها لا تكون أصولًا، وسوف نُخطئ إذا كُنّا نظن أن المعاصرة تقتضي الاستسلام لروح العصر ومقولاته؛ حيث إنّ هناك في الغرب من يشكو مُرَّ الشكوى من الليبرالية والرأسمالية، وما سببتاه من شقاء روحي واجتماعي لكثير من الناس.

إن الحديث عن المتغيّرات يكون غير ذي معنى إذا لم يكن هناك ثوابت تستعصي على التغيير. والمعاصرة تقتضي الاستجابة لمتطلبات العصر في إطار الثوابت والأصول وإلّا فإنّنا نتحوّل إلى مقلدين لا يُحسنون سوى السير في ذيل القافلة!

• حُسن إدارة الإمكانات التي بين أيدينا:

والحقيقة أن عصرنا هذا هو عصر الإدارة كما أنه عصر الاتصال. والإدارة بعبارة مختصرة تعني استخدام الموارد المتاحة بأعلى درجة من الكفاءة من أجل بلوغ الأهداف المرجوة. كلما كانت إمكاناتنا محددة احتجنا إلى إدارة أفضل. وقد أصاب من قال: « إنّ أيامًا سودًا تنتظرك خلف الباب إذا أنت أسأت استخدام الإمكانات التي بين يديك. نحن بحاجة إلى أن نكتسب ثقافة إدارية ممتازة حتّى نتعلّم كيف ندير الوقت وندير الموارد، وندير العنف وندير الخلاف، كما ندير النجاح والإخفاق... ».

• القدرة على التكيف:

ولا بدّ من القول ابتداء: إن الشخص المتكيِّف ليس شخصًا سهلًا ليّنًا جاهزًا للتسويات والتنازلات، إن هذا التعريف هو التعريف السلبي. وإنما نقصد بالتكيُّف: الاستعداد لتفهُّم الظروف والمعطيات الجديدة وإصدار ردود أفعال تتناسب معها؛ فقد تقتضي وضعية طارئة أن يغيّر المرء تخصّصه أو مهنته، وقد تقتضي الحصول على تخصّص فرعي جديد، كما أنها قد تقتضي اكتساب مهارات جديدة وتغيير بعض القناعات والعادات والسلوكات القديمة...

وقد يعنى التكيُّف المزيد من التحمُّل للمشاق والمزيد من

المثابرة في بذل الجهد. وحتى يكون المرء معاصرًا فإنّ عليه أن يُحسِّن لياقته النفسية والروحية للإقدام على كل ذلك.

ولنحاول تناول شيء من السمات والشروط الضرورية التي ينبغي أن تتوافر في الإنسان المسلم حتى تتحقق له المعاصرة:

- **التعلم المستمر:**

إذ إنّ النمو المعرفي الهائل الذي نشاهده اليوم قد جعل كل ما لدينا من معلومات يُدفع دفعًا باستمرار نحو التهميش، إنّه يفقد قيمته بسرعة بسبب الإضافات الجديدة وبسبب تراجع ملاءمته للأوضاع المتغيّرة. وقد صار من المهم أن نبني كل نظمنا وبرامجنا على أساس أنّها ناقصة؛ بسبب أنّ ما نحتاج إليه من المعرفة صار باستمرار أكبر مما نحصل عليه. وصار أيضًا من عظمة أي أمّة أن تعتقد أن لدى الآخرين شيئًا في إمكانها أن تتعلّمه؛ ولا يكفي الاعتقاد؛ بل إن عليها أن تتصرّف بإخلاص بناءً على ذلك. وفي هذا السياق يمكن القول: إن الإعراض عن القراءة وعن اصطحاب الكتاب يشكّل واحدة من أخطر المشكلات التي على المسلمين حلّها وتجاوزها.

- **امتلاك نظرة جديدة للمصاعب والتحديات التي تواجه الواحد منا:**

إن الناس على مدار التاريخ كانوا ينظرون للأزمات على

أنها شيء سيّئ ومكروه ومُعوّق. ولا شك في أنّها كذلك، لكن أدبيّات العصر الحديث أفرزت شيئًا إضافيًا لهذا المعنى، وهو أن الصعوبات التي نواجهها تحقق لنا شيئين أساسيين:

الأول: أنّها تستنفر طاقاتنا الكامنة وتُنبّه وعينا من غفوته إلى المخاطر المحدقة.

الثاني: هو حمايتنا من الترهّل والانحلال الذاتي.

وقد أوجد بعض علماء الحضارة مصطلحًا جديدًا للدلالة على ذلك، هو « خيانة الرخاء ». وهناك من يقرر أن العالَم تقدَّم عن طريق الأزمات أكثر من تقدُّمه عن طريق اليسر والرّخاء.

إن النظرة تغيّرت أيضًا للمعارضة السياسية والإدارية؛ حيث صار يُنظر إليها على أنّها شيء ضروري لتوازن النظام وإثراء النقد الاجتماعي. ومن هنا نشأت معادلة التحدي والاستجابة، ونظرية الوسط الذهبي، والوسط المعجز، والوسط المثبِّط.

يمكن أن نقول بسهولة:

- إنّ عصرنا هو عصر الشكل، وإنّ ثقافته هي ثقافة الصورة. وقد صار من الواضح أنّ النّاس كلّما درجوا في صُعُد الحضارة والعمران صار اهتمامهم بالشكل والمظهر أعظم، كما يصبح انتباههم إلى كثير من الأصول والكليات أضعف.

ومع أخذ هذا الملحظ بعين الاعتبار فإنّ من المهم للمسلم المعاصر أن يراعي ما نسمّيه بالشكليات في حديثه وتعامله

ولباسه، وطريقة كلامه، وطريقة قيادته لسيّارته، وطريقة ممارسته للنقد وتعبيره عن الغضب...

وممّا يلاحظ في هذا الشأن أنّه حدث نوع من الدمج بين الشكل والمضمون إلى درجة تكوين انطباع عن المضمون بواسطة الانطباع عن الشكل. وصار المتلقّي للفكرة العظيمة يستخف بها إذا تلقّاها بطريقة غير عصرية أو من شخص يبدو في مظهره وسمته مجافيًا لروح العصر.

- عصرنا عصر التزاحم في كل شيء، ومع كثرة الخير، وكثرة فرص العمل والارتقاء إلّا أنّ ذلك لن يكون من غير ثمن. ومن جملة ذلك الثمن أن نتعلّم كيف نتحمّل المشاق، وكيف نكون جادين في التعامل مع المعطيات المختلفة. إنّ كثيرًا من الأعمال الناجحة مدين في نجاحه إلى ذلك الاهتمام وتلك العزيمة التي أبداها أولئك الذين قاموا بها. وفي المقابل فإن الكسل وفقد الاهتمام يعدّان من أكثر العوامل التي تؤدّي إلى الإخفاق.

إنّ التخلُّف يشكِّل عقلية تفكر على أساس « لا شيء يهم » ومن ثمّ فإن الإنجازات التي يمكن أن يتحدّث عنها الناس في البيئات النامية قليلة وشحيحة.

إنّ الروح الجادة تستحث العقل على إنتاج الأفكار العملية، كما أنها تبعث في أرجاء الذات روح الصمود والمغالبة، ومن هذه وتلك تتشكّل فيزياء التقدم.

• اللمسة الإنسانية وتوسيع دائرة الاهتمام بالآخرين:

إن تطوّر وسائل الاتصال على هذا النحو المذهل جعل العالم فيما يشبه (الخلّاطة) الكبيرة؛ وهذا في الحقيقة جعل مصير البشرية أشد ترابطًا وأعظم استجابة للتناذرات المتباعدة أكثر من أي وقت مضى.

إن اللَّه - تعالى - بعث محمدًا ﷺ رحمة للعالمين، وإن من المأمول ألا يلتقي مسلم بمسلم أو بغير مسلم إلّا ويحدث نوع من الشعور بتلك الرحمة.

إنّ الناس - على نحو عام - كلّما درجوا في مدارج الحضارة صاروا أكثر حساسية نحو السلوك غير المهذّب، وتوقّع بعضهم من بعض المزيد من اللّطف والعناية والمراعاة، كما يتوقّعون مزيدًا من الرفق والأناة والحرص على المصلحة العامة. ومن المهم أن نتعامل مع هذه المعاني اليوم بالجدّية الكافية.

• القدرة على الاتصال وحسن التعبير عن الذات شرط لعيش العصر بكفاءة:

لا يكفي أن يكون المرء صاحب رسالة عظيمة ومبادئ سامية وأفكار ممتازة؛ بل لا بدّ أن يتعلم كيف يعبّر عن كل ذلك، وكيف يبلّغه للناس على نحو مؤثّر. ومن المؤسف أنّ مدارسنا وجامعاتنا لا تُولي هذه المسألة الحد الأدنى من العناية

التي تستحقّها؛ فعلى حين تُعلِّم بعض الدول أبناءها في المرحلة الابتدائية وما بعدها فن الخطابة، كما تعلِّمهم كتابة السيرة الذاتية وفن الحوار، فإنّ الطالب عندنا يُكلَّف بحفظ الكثير من الأشياء التي لا تنفعه في أمور دينه أو دنياه!

وقد دلَّت الخبرة أن سوء الفهم ليس حادثًا نادرًا، وأنّ كثيرًا من المشكلات يقع بسبب القصور في الشرح والقصور في الاستيعاب. وعدم تمرُّسنا في فن الاتصال وعدم تدرُّبنا على حسن الاستماع من الأمور الأكثر تسبُّبًا في الفرقة والاختلاف. ومع أن التحسُّن على هذا الصعيد آخذ في التنامي إلّا أنّه ما زال بيننا وبين المطلوب مسافات شاسعة.

- **الفاعلية واستثمار الإمكانات المتاحة على أفضل وجه ممكن سمة من سمات الإنسان المتحضِّر:**

إنّ الفاعلية بعبارة مختصرة هي فن حشد الذات، وفن استخدام الأدوات الجديدة بكفاءة واقتدار.

إن الوعي بالذات ومعرفة نقاط القوة ونقاط الضعف فيها يُشكِّل البداية للفاعلية. وقد صار من الممكن اليوم مضاعفة الإنتاجية الفردية أضعافًا كثيرة من خلال إحياء الزوايا الميّتة في الشخصية، ومن خلال المثابرة وتنظيم الوقت وتأجيل الرغبات بالإضافة إلى تطوير أساليب العمل وتوفير البيئة التي تساعد على الإنجاز الجيد. والتقدُّم في كل هذه الأمور يحتاج

إلى شيء جوهري هو الإرادة الصلبة، وهي من جهتها تحتاج إلى هذه المجاهدة وحمل النفس على المكاره.

- **الإنجاز الفردي:**

نحن لا نختلف أنّ القاعدة العامة ماضية على الإنجاز الفردي، لكنّ الزمان الذي نعيش فيه قد عقَّد الأمور إلى درجة كبيرة مما أوجد عددًا كبيرًا من الأشياء التي لا يُمكن للمرء أن ينهض بها بمفرده، ممّا يقتضي من الواحد منا أن يمتلك العقلية والنفسية المطلوبة للعمل ضمن مجموعة. ولا يخفى أنّ اجتماع الناس بعضهم مع بعض يُثير التوتُّرات؛ مما يعني أن ينصبَّ الاهتمام أوّلًا على نزع فتيل المواجهة والتخفيف من الحساسيات النفسية غير المسوَّغة. وهذا يكون من خلال العديد من الأمور، والتي منها:

١ - حرص أعضاء المجموعة على فهم الخلفيات الثقافية بعضهم لبعض.

٢ - عدم التصرُّف على نحو منفرد في كلِّ أمر يحتاج إلى مشورة أو إلى قرار جماعي.

٣ - المحافظة على أسرار العمل، وعدم التحدُّث عن أيّ شيء ليس هناك تخويل بالحديث عنه.

٤ - فهم الدور الأساسي المنوط بالفرد، وعدم التطاول على مهام الآخرين.

٥ - الإحسان والخدمة والمعاونة للزملاء.

٦ - الصبر والعفو، وغض الطرف قدر الإمكان.

٧ - مراقبة الذات، ومراجعة المواقف، وتشذيب الزوائد الشخصية.

المعاصرة رؤية واستجابة وعمل وسلوك وعلاقات؛ والتجويد في كل ذلك مناط الكمال للمزيد من المعايشة الجيدة.

* * *

تشييد الأطر

يواجه العالم العديد من المشكلات الكبرى والخطيرة، وتلك المشكلات منها ما هو حاضر في الوعي وتحت الأضواء، ومنها ما هو مستتر أو صعب الفهم؛ لأن إدراكه يحتاج إلى درجة من النضج ودقة الملاحظة، لم تتوافر لدى بعض الشعوب بعدُ.

وأعتقد أن من جملة المشكلات التي لا نلقي لها بالًا، كيفية ترجمة المكاسب الاقتصادية الكبرى التي يحصل عليها بعض المسلمين إلى مكاسب اجتماعية عامة، ينتفع بها عدد كبير من الناس. وقد ألمح القرآن الكريم إلى هذه المشكلة بالأسلوب المجمل الرفيع، حيث قال - سبحانه -: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾ [الحشر: ٧].

فتعميم المال وتحريكه بين أكبر عدد ممكن من المسلمين وإتاحة الانتفاع به مقصد مهم من مقاصد الاقتصاد الإسلامي.

إنّ مهمة العمل الخيري ليس تقديم النفع للمحتاجين فحسب، وإنما نفع المتصدقين والباذلين أيضًا؛ بل إن انتفاع هؤلاء قد يكون أكبر؛ حيث إن هناك الكثير من المشاعر

النبيلة والمعاني الكبيرة لا تتفجّر داخل النفس إلّا إذا مددنا يد المعونة لغيرنا. وإن جزءًا مهمًّا من رفاهيتنا الروحية لا ننعم به إلا إذا تجاوزنا مرحلة الواجب في حياتنا الاقتصادية والاجتماعية، وقبل ذلك في علاقتنا مع الله - تعالى - وشعرنا أننا نقوم بعمل طوعي لم يطلبه منّا أحد، أضف إلى هذا أن العمل الخيري يُطهِّر نفوسنا من كثير من رذائلها، وعلى رأس تلك الرذائل مرض العصر المستشري والمنتشر في كل مكان ألا وهو الأثرة، والأنانية، والدوران في فلك الذات.

إن تكدُّس الثروات كثيرًا ما يُولِّد البغي والطغيان، ويُشجِّع على التبذير والإسراف، كما قال - سبحانه -: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾ [الشورى: ٢٧] وقال سبحانه: ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ [العلق: ٦، ٧].

نحن ندرك أن العمل الخيري مهما اتسع لا يُغني عن صلاح النظم والقوانين التي تتحكّم في حركة المال وتنميته واستحواذه، لكن نعتقد أنّ أعمال الخير تشكِّل في كلّ مكان في العالم نوعًا من الترميم لقصور النظم الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية القائمة والسارية. ومن هنا فإنّنا حين نسعى في دروب الخير نقوم بكرّة استدراكية من أجل استعادة شيء من العدالة الاجتماعية المنشودة.

إنّ المسلمين لا يعانون على المستوى التنظيري من أيّ نقص

توجيهي في مسألة الاهتمام بالعمل الخيري، فلدينا الكثير الكثير من الآيات والأحاديث والأقوال المأثورة، ولا أعتقد أنّنا نعاني من نقص في حب الخير؛ إذ إنّ هناك اعترافًا عميقًا لدى كل مسلم بنُبل العمل الخيري وغبطة السّاعين فيه؛ لكنّ الذي نشكو من نقص مريع فيه هو أنّ قلّة المؤسسات الخيرية جعلت الظروف العامة غير مواتية لتنمية الوعي الإسلامي بالعمل الخيري، وأهميّة التفكير في جعل العمل التطوّعي جزءًا من همومنا وجزءًا من برامجنا وأنشطتنا الشخصية.

وأعتقد أننا الآن نقف في النقطة الحرجة؛ حيث الحاجة المتصاعدة للعطاء المجاني والعمل التطوعي بسبب تزايد التفكُّك الأسري وارتفاع تكاليف العلاج والتعليم والمعيشة على نحو عام وبسبب انتشار البطالة ... في هذا الوقت أخذ الاهتمام بالشأن العام يتراجع، وأخذت الدوائر التي تجذب المتطوعين تنكمش وتضيق. وهذه الوضعية مقلقة ومزعجة.

إنّ العالم الإسلامي على نحو عام فقير للغاية في المؤسسات والأُطر والبرامج والأنشطة والفعاليات الخيرية. وذلك في اعتقادي بعض ضريبة التخلُّف العام الذي نعاني منه. والأرقام في هذا الصدد تثير الخوف؛ بل تصدم الإنسان المسلم الغيور على أمّته. ويقول بعض تلك الأرقام [1] إن لدى

---

(١) كل الأرقام التي تتناول أعمالًا حضارية كبرى، لا تحظى بالدقّة المطلقة، وينبغي أن نتعامل معها على أنّها مؤشرات ليس أكثر.

اليهود في فلسطين المحتلة ثلاثين ألف مؤسسة (لا ربحية) يعمل فيها قرابة (١١٪) من القوة العاملة هناك. ولدى فرنسا ستمائة ألف مؤسّسة لا ربحية. وفي الولايات المتحدة الأمريكية مليون ونصف مؤسسة لا ربحية، منها ثلاثة وعشرون ألف مؤسسة وقفية. وتزيد المؤسسات الأمريكية سنويًا بمعدل سبعة وثلاثين ألف مؤسسة! فماذا لدينا؟

تشير إحصاءات أخرى إلى أن بعض الدول الأوروبية لديها مقابل كل نحو مائتي شخص مؤسسةٌ لا ربحية، على حين أنّ أفضل بلد عربي في هذا الشأن لديه مقابل كل خمسة آلاف شخص مؤسسة لا ربحية. والمقارنة واضحة!

إنّ حبّنا للخير يظل غير ذي معنى إذا لم يتجسد في شيء ملموس ينتفع به المحتاجون وطالبو العون. وقد علّمتنا الخبرة أنّ هذا التجسُّد لا يحدث في معظم الأحيان إذا لم يتوافر الإطار المحفِّز والحاضن للعطاء. ومن هنا فإنّي أعتقد أنّ جوهر أزمة العمل الخيري يعود إلى قلة أعداد المؤسّسات الخيرية وقلّة تنوّعها أيضًا.

إنّ المجتمع الحقيقي في الرؤية الإسلامية هو الذي تهتم فيه أكبر شريحة ممكنة بالشأن العام وبما لا يقع ضمن اختصاص أحد. وكلّما قلَّ المتطوّعون في مجتمع من المجتمعات لم يكن مجتمعًا إلّا على المجاز؛ إنّه في حقيقة الأمر حشد ليس أكثر!

يبدأ الإصلاح في البيت من خلال تنمية معنى البذل والتطوّع في نفوس الصغار وتدريبهم على عمل الخير. وتتحمّل المدارس مسؤولية تنمية البذرة من خلال تدريس بعض المواد، وتنفيذ بعض البرامج التطوّعية والإغاثية والخدمية ذات النفع العام.

ولوسائل الإعلام دور جوهري في تسليط الضوء على المبادرات الخيرية، وتشجيع أصحابها ونشر الأفكار الإبداعية في المجال الخيري. القطاع الخاص ملك الأفراد. والقطاع العام ملك الدولة. والقطاع الخيري ملك الأمّة. وعلى الأمّة أن تتعاون على تنميته.

وأنا أتصوَّر أن يكون لدينا في مواجهة كل مشكلة مؤسّسة ذات فروع تعمل في المدن والحاضر على مساعدة الذين يعانون من تلك المشكلة. وذلك مثل الأمراض الخطيرة والمزمنة ومثل الفقر والبطالة والجهل والأميّة والإدمان والخلافات الأسرية... ولن يحدث شيء من ذلك إذا لم يحدث الوعي الجيّد بالحاجة الماسّة إليه، وإذا لم تُسَن النظم والتشريعات التي تسهِّل قيامه بل تكافِئ القائمين عليه، وتحفزهم. ولا شك أننا سنشاهد بعض المشكلات المصاحبة للعمل الخيري. وهذا طبيعي؛ إذ ليس هناك عمل من غير مشكلات، لكن مهما تخيّلنا من مشكلات وعقابيل للأعمال الاحتسابية فإنها لا تساوي إلّا جزءًا يسيرًا من المشكلات التي

تترتّب على عدم وجودها أو على ضعفها.

قد تأخّرنا كثيرًا عن الركب العالمي الخيري، وفاتنا خير كثير، ولم يبقَ لدينا وقت إضافي نضيّعه، وقد آن الأوان لانطلاقة تاريخية جديدة وعظيمة في تفعيل العمل الخيري وتنميته، فهل نتجاوب مع المعاني الكامنة في نفوسنا؟ وهل نستجيب لنداءات العصر والحاجة القريبة من آذاننا؟

هذا ما أرجوه...

* * *

الثقافة الآنيّة

لا نعني بالثقافة هنا المعرفة أو العلم، وإنّما نعني ما عناه علماء الإنسان حين نظروا إلى الثقافة على أنها (أسلوب حياة) وبذلك تكون المعرفة مكوّنًا من مكوناتها.

وللثقافة بهذا الاعتبار تعريفات كثيرة، يمكن ضغطها في القول:

إنّها مجموعة العقائد والأفكار والمفاهيم والنُّظم والرموز والعادات والتقاليد السائدة في بيئة من البيئات. هذه الثقافة تنمو خارج دائرة الوعي، وتتطور بوصفها صدى لجملة التحديات والشروط والمطالب التي يفرضها التقدم الحضاري. لا يعني هذا بالطبع أنّ الثقافة مسلوبة الإرادة وأنّها لا تعرف طعم المقاومة بمقدار ما يعني مرونتها وقدرتها على الاستجابة لمتطلّبات المعاصرة.

الثقافة أشبه بالكائن الحي، تتعرّض لما يتعرّض له من صروف وعوارض. ولعلّ داء (الآنية) والحرمان من البعد المستقبلي من أخطر أدواء الثقافة. لو تأمّلنا في جملة التعاليم الإسلامية لوجدنا أنّها تدفع بالمسلم دفعًا ليكون مستقبليًّا من الطراز الرفيع. إنّه يملك القدرة على التضحية بالكثير من العاجل في سبيل الحصول على الآجل. والحقيقة أنّ هذا

المعنى يشكّل مؤشّرًا إلى التمدن العقلي والروحي؛ فالحيوان لا يعرف معنى تأجيل الرغبات، ولا يفرّق بين عاجل وآجل، ولا يعرف مدلول التضحية بشيء يسير من أجل الحصول على شيء عظيم. وهكذا فالإنسان كلّما أوغل في الحضارة زادت مفارقته للحيوان، وتعمّقت لديه ميزات بشريّته.

ومن المؤسف أنّ العولمة التي تخيّم على العالم اليوم كظلٍّ أسود تمارس عملية (تطفيل) للناس من خلال نشر ثقافة الاستهلاك والاستجابة للرغبات. إنّ العولمة تشجّع الناس على الاندفاع نحو الإرواء المباشر والسريع للرغبات مهما تكن العواقب وخيمة وخطيرة. وكثيرًا ما تتجلى آنية الثقافة في الإدمان والعادات المستحكمة. إنّ المدمن على نوع من الطعام أو الشراب، وإنّ الذي عوّد نفسه سلوكًا من السلوكات يجد نفسه ضعيفًا مشلول الإرادة أمام ما تعوّده وأدمن عليه. هذا رجل في الثمانين حذّره الأطباء من الاستمرار في التدخين، ويشعر دائمًا بالأذى الذي يسبّبه له، لكنّه مع هذا يعتقد أنّ من غير الممكن بالنسبة إليه أن يتركه أو يـفـكـر في تركه!

هذه الثقافة تزداد اليوم تعمُّقًا ورسوخًا في حياة الناس، وذلك بسبب الدعاية المكثّفة والمستمرّة لبعض السلع والخدمات والمرفّهات وبسبب الفراغ الروحي وانعدام الجدِّية، إلى جانب اليأس والإحباط الذي يعاني منه كثير من الشباب اليوم.

الآنيَّة لا تشوِّه روح الثقافة ووجهها الجميل فحسب، وإنّما تقتل حيوية التديُّن في النفوس، وتصرف الوعي عن الاهتمام به؛ لأنّها تصرفه عن الاهتمام بالمستقبل.

إن انتشار الإسلام محدود جدًّا في اليابان على الرغم من يقظة الإنسان الياباني وجدِّيته، لكن وجد بعض الباحثين أنّ الإنسان الياباني إنسان مضغوط وملاحَق من قبل المطالب المعيشية اليومية وملاحَق من جهة عمله بما تطلبه منه من إنتاجية وجَوْدة في الأداء، وهذا ما يجعله مستغرقًا في الحاضر إلى حد بعيد.

ما الذي يمكن أن نفعله حيال هذه الوضعية؟

إنّ أشد ما يؤثِّر في وضعية الشخص وكذلك الأمّة ليس الوقوع في الخطأ؛ فكل ابن آدم خطّاء - كما ورد في الحديث الشريف [1] - وإنّما الاسترسال والتمادي فيه.

إنّ الخطأ حين يصبح بمثابة الداء المتوطِّن، يشوِّه النماذج الاجتماعية التي يقدِّمها الكبار للصغار، وترسِّخ في المجتمع ثقافة التساهل تجاه الموبقات والمهلكات.

التوبة والأوبة هي أقوى سلاح يشهره المسلم في وجه إبليس، وفي وجه النزوة والرغبة غير المشروعة. وقد ذكر اللّه سبحانه أن من سمات المتقين سرعة الإفاقة بعد الكبوة:

---

(١) رواه الترمذي في سننه في الدعوات.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. وقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٧ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٧، ١٨].

إنّ انغماس الناس في ثقافة الاستهلاك والإدمان على تلبية الرغبات العاجلة لم يتم بشكل عفوي، كما قد نظن لأول وهلة، وإنّما بسبب الدعاية والإعلان وحملات الإغراء التي تقوم بها الجهات المنتجة للسلع والخدمات التي أدمن الناس على الاستمتاع بها؛ وهذا يعني أنّ التخلص من ربقتها لا يتم إلّا من خلال جهد حكومي وشعبي منظّم ومستمر.

الجهد المقاوم المطلوب يحتاج إلى مؤسسات تحتضنه وتطوّره وترعاه. واعتقد في هذا السياق ضرورة تشكيل هيئة لقياس (نوعية الحياة) في كل قطر إسلامي، تكون مهمّتها مراقبة السلوك الأخلاقي والاجتماعي والغذائي للمواطن وتوجيه ذلك السلوك على نحو يجعله أكثر استقامة وصلاحًا وأكثر انسجامًا مع المعايير الجديدة للحياة الطّيبة التي تليق بالمسلم المعاصر. ولا بدّ إلى جانب هذه الهيئة من تشكيل عدد كبير من الأطر والجمعيات والروابط التي تختص كل

واحدة منها بمقاومة مشكلة من المشكلات الثقافية والسلوكية، مثل التدخين والإدمان على الكحول والمخدّرات والإسراف والتبذير والبدانة والعادات الصحية الخاطئة والسهر والنوم المتأخّر وانحطاط لغة التواصل الاجتماعي والتساهل في الضوابط الشرعية في مسائل اللباس والزينة وغيرها...

إنّ الناس ينفرون في العادة من الأشياء السيّئة في البداية، ثم لا يلبث وعيهم أن يتكيَّف معها، ومن هنا فإننا في حاجة إلى تنظيم حملات لمقاطعة الأشياء السيّئة في حياتنا، والتي جعلتنا نغضّ الطرف عن مراجعة واقعنا وإن كان فيه إساءة كبيرة لمستقبلنا.

وقد سبقنا الغرب إلى هذه الحملات بوصفها وسيلة ناجعة للتذكير بما يجب أن يكون عليه الناس. تجد لديهم أحيانًا حملة من أجل قضاء يوم في الأسبوع من غير تلفاز حتى يتفرّغ الناس للتأمُّل والقراءة والتواصل الاجتماعي. وحملة لترك السيارة الخاصة يومًا في الأسبوع أو يومين من أجل ممارسة المشي والتخفيف من الزحام في المدن. وحملة لمقاطعة المنتجات التي تحتوي على عناصر معدّلة وراثيًا...

نحن في حاجة إلى هذه الحملات وأخرى شبيهة بها: حملة للتّذكير بأهميّة صلاة الجماعة، وحملة لتوضيح أضرار البدانة وكثرة الأكل، وحملة لتوضيح أضرار الإعراض عن القراءة. حملة لمقاومة الاتجاهات العنصرية والطبقية في المجتمع...

القاسم المشترك بين كل هذه الحملات هو الإمساك بخيوط المستقبل، وإنقاذ أنفسنا من متاهات الحاضر.

الحضارة تأتي دائمًا ببعض الأدواء، وتجب مكافحتها بمنتجات وأساليب حضارية، وإلّا جافينا روح العصر وعقله.

وإذا لم يكن لك روح زمانك كان لك كل شروره.

* * *

الحبل المجدول

كثُر الحديث عن آليّات الإصلاح وسُبل النهضة وآفاق التغيير المطلوب، فلا تكاد ترى مجلّة أو جريدة، ليس فيها شيء من النقد لبعض ما نعانيه، أو إرشاد إلى شيء ممّا ينبغي علينا القيام به. وقل مثل هذا في كل الوسائل الإعلامية الحديثة.

الكل يشعر بأنّ هناك أزمة يجب تجاوزها، والجميع يُبشّرون بحلول جديدة، يرون فيها البلسم لعليل طال عهده بالأوجاع! وعند التأمُّل العميق تجد أن الجديد قليل جدًّا، وأنّ معظم ما يُقال مُعاد مكرور، لكنّه معروض بأناقة لفظية آسرة!.

مع هذا فإنّ الكف عن التنظير ليس هو الحل. والساحة ليست متخمة بالأفكار والتنظيرات؛ كما يحلو لبعضنا أن يجهر به. المطلوب منا أن نمسك برؤوس الموضوعات، وأن نحاول الوصول إلى مستخلصات فكرية وثقافية قيّمة، تساعدنا على الفكاك من السيل الجارف للآراء والمقترحات المتكاثرة والمتقاطعة.

وأود هنا أن أشير إلى ثلاثة مستخلصات أعتقد أنّ التفكير فيها والعمل على إغنائها وبلورتها يعدُّ شيئًا مفيدًا بل مهمًّا:

• الذين يسألون عن النقلة النوعية لأمّة الإسلام على سُلَّم الحضارة، كثيرون جدًّا. والذين يسألون عن النصر

النهائي والغَلَبة الحاسمة أيضًا كثيرون. وأعتقد أنّ كلًّا من هؤلاء وأولئك لا يعرفون جيدًا (فيزياء التقدم) لأمّة موزّعة على أكثر من خمسين دولة، عدا الأعداد الكبيرة من المسلمين التي تشكل أقلّيات في العديد من دول العالم. إنّهم غير قادرين على تصوّر صعوبة تحرُّك أمّة تُشكِّل ما يزيد على خمس سكان العالم كما تتحرَّك دولة مثل (الصين) أو (الهند) ولهذا فإن طموحاتهم بتحقيق الوثبة الكبرى أو الفوز بالضربة القاضية، هي طموحات في غير محلّها.

الأولى والأجدر أن نفكِّر وفق نظرية (الحبل المجدول)، والتي تقوم على اعتقاد أنّ نهضة الأمّة شأن أكبر من أن تقوم به دولة أو جماعة أو صفوة مستنيرة. إنّها أشبه بحبل مجدول من آلاف الملايين من الشُّعيرات الدقيقة. وإنّ كل مسلم من خلال القيام بعمل جيّد يضع شُعيرة في ذلك الحبل. كما أنّ كل مسلم يقع في معصية، أو يُقصِّر في واجب ينسل شُعيرة منه. وهذا ترجمة دقيقة للاعتقاد بأنّ النهضة لا تنشأ بقرار ولا بمجموعة قرارات. إنها تُبنى كما يُبنى جدار ضخم: اللبنة فوق اللبنة وإلى جانب لبنة أخرى. وهذه الرؤية تنسجم مع المعنى العميق لقول الله - جل وعلا -: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

فعملُ الخير والعمل الصالح والعمل الإيجابي النافع، كل

هذه الأعمال تدخل في رصيد يتراكم عبر الأيام. ولا يختلف ذلك في الدنيا عن الآخرة، وإن كنّا نحتاج بعض الوقت أحيانًا لنرى ذلك بوضوح.

إنّ مسؤوليتنا أمام اللَّه - جلّ وعلا - فردية، وهذه المسؤولية يجب أن تحفزنا دائمًا على أن نعمل أفضل ما يمكن عمله، وندفع من الشرّ كل ما يمكن دفعه.

• نحن أمّة تعاني من مشكلات عويصة تتعلّق بالتثقف وتشرّب الأفكار؛ فالأعداد الكبيرة من الأميّين، وأولئك الذين يعملون في أعمال عضلية شاقة؛ بالإضافة إلى المشغولين في غير مشغلة ... كل هؤلاء يعانون من معضلة سُبات الوعي، وفقد الشهية للتفاعل مع الأفكار الجديدة، إلى جانب فقد الاستعداد النفسي للاستجابة للتحديات المتتابعة. وهذا يعني أنّ المشكل الأساس الذي يواجهنا هو الاتصال بالسواد الأعظم من الناس، وإيصال الأفكار النهضوية إليه.

إنّ فكرة (الحبل المجدول) فكرة جيّدة ورائعة، ولكن قيمتها ستظل محدودة ما دام معظم الناس لا يعرفون شيئًا عنها، أو لا يتعاملون معها بدرجة جيدة من الوعي والتفاعل.

إنّ ما نسمعه من الأفكار في كل يوم كثير جدًّا. والصالح منه غير قليل، ولكن جدواه محدودة ما لم يكن قادرًا على أن يجعلنا نتّخذ في حياتنا العملية موقفًا جديدًا، أو نسلك طريقًا

أكثر رشدًا من الطريق الذي نمضي فيه. وهذا يجعلنا نتوقف أمام تساؤل مهم، هو:

من الذي سيدل الناس على واجباتهم؟

ومن الذي سينشر الأفكار والمفاهيم الجيّدة بينهم؟

لا أعتقد أنّ هناك سبيلًا غير سبيل المؤسسات المتخصصة. هذه مؤسسة تهتم بنشر ثقافة الحلال والحرام. وهذه مؤسسة، تشرح طريق النجاح. وهذه مؤسسة تنشر الوعي الاقتصادي. وهذه مؤسسة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. وهذه مؤسسة تنشر الوعي بأهمية القراءة ومصاحبة الكتاب...

وهذا يعني أنّ عقدة التأزم الحالي ربما كانت في عدم وجود ما يكفي من المؤسسات لدفع الناس في اتّجاه تحمُّل مسؤولياتهم. ولذا فإن الأولوية يجب أن تُعطى لتشييد المؤسّسات المتخصِّصة والفاعلة. وهي في الحقيقة أشكال وأجناس كثيرة ومتنوّعة للغاية.

• ليس الناس في حاجة إلى من يُرشدهم إلى ما عليهم القيام به فحسب، وإنما يحتاجون أيضًا إلى من يعلّمهم كيف يحوّلون الفكرة إلى برنامج ومنهج وسياسات. وكيف يكتشفون الطرق والوسائل التي يعالجون بها المشكلات التي تواجههم.

إنّ مشكلة كثير من الناس أنّهم لا يعرفون، ومشكلة كلّ

الناس أنهم لا يعرفون كيف ينتفعون على أفضل وجه مما يعرفون. هذا يتطلب منا أن نغني التفكير التطبيقي والروح العملية، وأن ننشر أكبر عدد ممكن من النماذج التي تساعد الناس على الانتقال من حال إلى حال.

• • •

إدارة الثقافة

لو عُدنا إلى أدبيّاتنا عبر القرون الماضية لوجدنا أنّ معظم تنظيرنا للشؤون الثقافيّة كان ينصب عليها بوصفها علومًا واختصاصات معرفيّة منظّمة. وربّما سادت تلك النظرة بسبب قلّة ما في أيدينا من المعارف والمعطيات المتعلّقة بالإنسان باعتباره كائنًا متعدِّد الجوانب ومتعدِّد الاحتياجات.

أمّا اليوم فإنّ المفهوم (الأنثروبولوجي) للثقافة آخذ في الانتشار والرسوخ؛ حيث إنّ هناك اعتقادًا متزايدًا بمحدودية تأثير (العلم المجرد) في صياغة السلوك الإنساني، وفي توجيه حركة الحياة اليومية. الثقافة كما بلورها علماء الإنسان، هي ذلك النسيج المكوَّن من العقائد والمفاهيم والنُّظم والعادات والتقاليد وطرز الحياة... السائدة في بقعة محدّدة من الأرض. إنّها طريقة عيش شعب بعينه، أو هي ما يجعل الحياة جديرة بالعيش. وكثير من مكوِّنات الثقافة يستعصي على التخطيط والتنظيم؛ لأنّها تشكِّل الخلفية (اللاواعية) لكل تخطيط وتنظيم.

إنّ تنوُّع العناصر المكوِّنة للثقافة يمنحها قوة هائلة في مواجهة الوافدات الأجنبية وما يمكن أن نتعرض له من ضغوطات داخلية. إنّه حين يتعرض أحد أنساق الثقافة

للهجوم أو الوهن، فإنها تعتمد قوة في استمرارها واستعادة حيويتها على باقي أنساقها، لكنّ نقطة قوة الثقافة هذه هي أيضًا نقطة ضعفها؛ حيث يعرِّضها تنوُّع مكوِّناتها في أحيان كثيرة إلى ما يشبه الانقسام على الذات بسبب التصادم بين بعض أنساقها؛ وهذا ما يجعلنا في حاجة إلى ما سمّيناه (إدارة الثقافة).

وأود هنا أن أدلي بالملاحظتين الآتيتين في هذه القضية:

- **في كل مجتمع نوعان من الثقافة:**

- ثقافة عليا وثقافة شعبية، أو ثقافة نخبة وثقافة جماهيرية

الثقافة العليا تتكوَّن بطريقة واعية، وتكون أكثر دراية بِبُنْيتها العميقة؛ وذلك لأنّنا نتملّكها عن طريق القراءة والتأمُّل والحوار الرفيع والمقارنة وطرح الأسئلة...

أمّا الثقافة الشعبية فإنّها ليست كذلك، إنّها تتكوَّن بطريقة غير واعية وغير مقصودة؛ حيث يتشرَّبها أبناء المجتمع ويتشبَّعون بها كما يتنفَّسون الهواء. ونقطة ضعفها هذه هي نقطة قوّتها؛ حيث إنّ اختراقها من قبل الثقافات الأجنبية يكون عسيرًا بسبب عشوائيتها وكتامتها، ورقابة المجتمع المشدَّدة عليها.

أمّا الثقافة العُليا والتي نبدأ بنشرها منذ الصف الأول الابتدائي إلى ما لا نهاية، هذه الثقافة هي التي تمثِّل الأمّة أمام

الأمم الأخرى، وهذا ما يجعلها على درجة حسنة من المرونة والقدرة على التكيُّف، وتمثُّل الرموز الثقافية الأجنبية، أي إنّ كثيرًا من الاقتباس والتطوير، يأتي عن طريقها. تنظيمها وتمثيلها الخارجي لثقافة الأمّة يعرّضها لأمرين مزعجين:

الأول: سهولة اختراقها؛ حيث إن طريقة اكتسابها الواعية تفتح الطريق لغزوها؛ ومن ثم تحويرها وتهجينها.

الثاني: جفول الوعي الشعبي من أصحابها، والشعور بأنهم يتجاوزون حدودهم إلى درجة يسوغ معها اتّهامهم بخيانة الأمّة وبيعها للغرباء.

ومع أنّ شيئًا من هذا ينطبق فعلًا على بعض المثقفين إلاّ أنّ المشكلة أنّ الثقافة الشعبية لا تملك المعايير المنهجية ولا الأُسس المنطقية التي تمكِّنها من الحكم الراشد على تصرُّفات النخبة، ممّا يجعل موقفها شاعريًّا أكثر من أن يكون عقلانيًّا. وهي بدافع من الخوف من الانقطاع تلجأ في كسب قضيتها إلى التيارات النخبوية الأكثر محافظة وتقليدية لتقدِّم لها العون في كبح اندفاع التيارات المتحرِّرة والمتطلِّعة إلى الحديث. وهذا يجعل من الثقافة الشعبية عاملًا مهمًّا في زيادة الانقسام بين تيارات الثقافة العليا.

يمكن القول: إن تطوير الثقافة الشعبية وتخليصها من العادات والسلوكات الخاطئة يقع على عاتق الصفوة أصحاب الثقافة العليا، لكن من الصعب أن يحصلوا على الاستجابة

لمناشداتهم وطروحاتهم ما داموا موضع شك وريبة من أولئك الذين يحتاجون لخدماتهم.

في العالم الإسلامي قامت الثقافات الوطنية والمحلية منذ أمد بعيد بإفراغ طاقاتها على الحضّ والكفّ في الثقافة الإسلامية المستندة إلى الكتاب والسنة واجتهادات الفقهاء، وصار من غير الممكن المضي قدمًا في تطوير أي شأن محلي بعيدًا عن مدلولات هذه الثقافة ورمزياتها وتحديداتها. وهذا يعني أن ثقافة النخبة لا تستطيع أن تصبح قوة محركة للناس ما لم تتشرب روح الدين، وما لم تلتزم بقطعياته وأطره العامة.

إننا في مرحلة حرجة يحتاج فيها كل من يروم الإصلاح إلى ولاء الناس وحماسهم وتضحياتهم؛ لأن المفكر لا يملك أكثر من ناحية التنظير؛ والجماهير هي التي ستتحمل عبء التنفيذ؛ ولهذا لا بدّ من الاستحواذ على رضاها وإعجابها. وستكون النخبة في وهم كبير إذا ظنّت أنّها تستطيع إحداث تغييرات كبرى من غير مساندة حقيقية من طيف واسع من أبناء الأمة.

وقد أثبتت التجارب الكثيرة الإسلامية وغير الإسلامية أن كل حمل يتم خارج الأمة هو أشبه بالحمل الكاذب. وحين يجافي أهل الرؤية والخبرة روح الدين فإنّهم يُسْلمون زمام الأمّة إلى عناصر تملك الكثير من الحماسة والاندفاع والقليل

من البصيرة والفهم لمتطلّبات المرحلة.

إنّ طاقة ثقافة الأمّة تكمن في المستوى الشعبي منها، على حين أن عقلها ورشدها في المستوى الصفْوي. وهذا التفاوت هو دائمًا مصدر للتوتر والنزاع، لكن في الوقت ذاته يمكن أن يكون مصدرًا للتطوير نحو الأحسن والأقوم إذا أدرنا العلاقة بينهما بما هو مطلوب من الذكاء والوعي.

- **إنّ تنوّع الأنساق المكوّنة للثقافة يحيل دائمًا على إمكانية حدوث الصدام والنزاع، كما هو الشأن في التنوّع والتعدُّد.**

ويبدو أنّ أشد أنواع التوتّر تلك التي تقع بين الثقافة بوصفها (هوية) وسمات خاصة بالأمة، والثقافة بوصفها تعبيرات عن نزعات استهلاكية، أو تعبيرات عن تحرّكات لتلبية حاجات الجسد، أو تعبيرات عن التكيُّف مع ظروف ومعطيات شديدة القسوة. وكلّما أوغل الناس في مدارج الحضارة اشتدّ أوار الصراع بين هذين النسقين من أنساق الثقافة؛ ذلك لأنّ ثقافة (الهوية) تتّسم بالتعالي عن الانشغال بالواقع، وتنزع نحو المطلق.

على حين أن التحضُّر يزيد وعي الناس نحو مصالحهم، ويفتح شهيتهم على الاستهلاك، مما يفضي في نهاية المطاف إلى تضخُّم الثقافة المتعلِّقة بتسيير الحياة اليومية وتحقيق المنافع الشخصية، وهذا يجعل الناس يشعرون ويظهرون بأنهم أكثر

دنيوية، وهو ما يثير حساسية الترميزات العميقة للهوية في الثقافة الإسلامية.

من الواضح اليوم أنّ الثقافة (ما بعد الحداثة) تشجُع على انبعاث (الهويّات) في كل أنحاء العالم من خلال عمل غير مقصود، وهو المناداة بالنسبية الثقافية والتأكيد على انعدام الأُطر والمرجعيّات وجعل (الحقيقة) شيئًا تابعًا للثقافة. وتُكمِّل (العولمة) المهمّة حين تعتمد (نظام التجارة) أداة أساسيّة في (تسليع) كثير من مظاهر الحياة وجعلها أمورًا جاهزة للمتاجرة والمساومة.

إنّ هذا الدفق الهائل من الرموز والصور الاستهلاكية يساعد على نحو استثنائي على انتشار الهويّات المقاتلة دفاعًا عن الوجود. وقد لا يكون أمامنا لإدارة الصراع المحتدم في عمق الثقافة على هذا الصعيد إلّا أن ندعُم الأنشطة الروحية والأدبية والاجتماعية ذات النفع العام، وأن نحاول إضفاء المعنى على الأنشطة الدنيوية من خلال الحرص على شرعيتها وشرح ما يمكن أن يجعلها موصولة بالأعمال الأخروية. وما لم نفعل ذلك فإنّنا سنعاني من الانقسام والتمزُّق في أعماق ثقافتنا، وسنشعر بالكثير من تشتُّت الجذور وضياع الأهداف الكبرى.

• • •

الأكراد: ضياع الإطار

تُقدِّم المسألة الكردية مثالًا نموذجيًا للعقابيل والمشكلات والمآسي التي تترتب على تفكُّك إمبراطورية من الإمبراطوريات.

قد كانت (كردستان) إحدى الولايات الخاضعة للدولة العثمانية. وكان حظ الأكراد في إدارة أنفسهم والسيطرة على مواردهم لا يختلف عن حظ أهل أي ولاية من ولايات تلك الدولة. وإذا شعروا بممارسة شيء من الحيف أو القهر السلطوي فإنّ ذلك أيضًا قد لا يختلف كثيرًا عمّا يشعر به أهل الولايات الإسلامية الأخرى. ومن هنا فلم يكن هناك شيء اسمه « القضية الكردية ». وكانت كل مشكلات الأكراد عبارة عن جزء من التركة الكبرى لرجل مريض ستوزَّع تركته وأملاكه وفق مآرب الغرب ورؤاه السياسية والإستراتيجية.

في اتفاقيّة (سايكس بيكو) حدث للأكراد ما لم يحدث لغيرهم، فتمّ توزيع ولاية (كردستان) والتي تبلغ مساحتها حوالي (نصف مليون كيلو متر مربع) على خمس دول هي إيران والعراق وتركية وسورية وجنوب روسية. والآن وبعد تفكُّك (الاتحاد السوفييتي) صار جزء من الأكراد في أذربيجان وجزء منهم في أرمينيا. أي صاروا موزَّعين على

ست دول !. وهذا في حدِّ ذاته ومهما كانت معاملة الحكومات لهم يشكِّل صدمة كبرى؛ حيث يعاني نحو من أربعين مليون كردي من الشعور بالتمزّق والتّبعية والعجز عن السيطرة على أراضيهم التي استوطنوها منذ آلاف السنين والعجز عن الاستفادة على نحو عادل من مواردهم الكبيرة والمتمثِّلة في المياه العذبة والنفط.

وأود هنا أن أعرض لبعض المفاهيم الجوهرية المتعلِّقة بالمسألة الكردية في النقاط الثلاث الآتية:

- كان العثمانيون على الرغم ممّا لديهم من أشكال الخطأ والقصور يقدّمون صيغة في الحكم والإدارة تتلاءم مع التنوُّع الكبير لثقافات الشعوب التي كانوا يحكمونها. وتلك الصيغة تقوم في المجمل وفي معظم المراحل على تقديم إطار يتّسع لكل الهويّات الفرعية التي كانت تحملها الشعوب المنضوية تحت لوائهم؛ وذلك من خلال ابتعاد ذلك الإطار مسافات معيّنة عن كل لون وطني أو إقليمي من ألوان الخصوصيّات الثقافيّة والعرقيّة واللغويّة لتلك الشعوب؛ فالسياسات العامة للدولة - الإمبراطورية لم تكن تتطابق مع متطلّبات أي قومية أو أي عرق ممّا كان منضويًا تحت هيمنتها.

وقد كان الإسلام بعقيدته وأحكامه وأدبياته هو المرجعية المعلنة - على الأقل - للدولة. كما كان المصدر الذي تستمدُّ

منه شرعيتها، وتعتمد عليه في الحصول على درجة من القبول الشعبي لها. وهذه في الحقيقة نقطة مهمّة للغاية؛ لأن الثقافات الوطنية في كل أصقاع العالم الإسلامي كانت من أمد بعيد قد أفرغت كل طاقاتها وقدراتها على الحث والتحفيز في الثقافة الإسلامية. كما فقدت الكثير من جاذبيتها لصالحها. ولهذا فإن حكم الناس في إطار التعاليم الإسلامية يظل يكتسب القبول والتأييد من قبل السواد الأعظم من المسلمين. أضف إلى هذا أن الإسلام بما هو منطلق للحكم العثماني ومرجع له قد قدَّم قاعدة للمشاعر والآمال والأهداف المشتركة لكلِّ المؤمنين به مهما كانت لغاتهم وأعراقهم. وهذه القاعدة تتمثّل في (الأخوة في العقيدة) على نحو يتجاوز أخوة الدم ورابطة الانتماء القبلي والوطني.

إنّ كل مسلم هو مشروع أخوَّة قائم؛ ومن ثمّ فإنّ عليه أن يسعى إلى بناء معنى الأخوة الإسلامية بما هي مصدر للتعاون والتضامن والعطاء والتجاوز للأنانية الفردية. وهذه الأخوة كثيرًا ما كانت تساعد على تحمّل أعباء السياسات الغاشمة، وتخفِّف من التوتُّرات التي كانت تنشأ عن احتكاك الأعراف والثّقافات المتباينة. وهذا كلّه ساعد على عدم تشكيل الأكراد مركزًا لإزعاج الدولة العثمانية على ما عُرف عنهم من فروسية وبأس وقوة شكيمة.

● نحن نعرف الكثير عن الأسباب – وأحيانًا كل الأسباب –

التي تؤدي إلى تفكُّك إمبراطورية من الإمبراطوريات، لكنّ الشيء الذي لا نعرفه هو كيفية تضميد الجراح التي تنشأ عن ذلك التفكُّك، وكيفية العثور على صيغة جديدة للدول التي فقدت الإطار الجامع الذي كانت تتفاعل داخله.

انهارت الدولة العثمانية، ولم يكن ذلك الانهيار بسبب الضغوط الاستعمارية من الخارج أو الأخطاء التي ارتُكبت في الداخل فحسب، وإنما كان هناك شيء جديد بالغ الأهمية في هذه القضية، وهو بروز رباط سياسي جديد ذو جاذبية شديدة، وهذا الرباط وإن كان لا يساعد على بناء إمبراطوريات جديدة أو ترميم إمبراطوريات قائمة، لكنه يُشعر الأفراد بأنّه يقدِّم لهم فرصًا واسعة للمشاركة السياسية، وفرصًا للتخطيط للمستقبل العام لبلادهم على نحو لا يُقدِّمه النموذج التركي المستند إلى آليات تقليدية في الإدارة والعلاقة بالمواطنين. هذا الرباط أو النموذج الجديد يتجسَّد في (دولة المواطنة).

إنه في الوقت الذي بدأ فيه الحكم العثماني - وكل أشكال الحكم التقليدية التي كانت سائدة آنذاك - يظهر وكأنه فقد صلاحيته، وصار عاجزًا عن تحقيق التقدُّم العمراني، والازدهار الاقتصادي، ومواجهة التحدِّيات الحضارية الجديدة، وفوق ذلك العجز عن إنتاج روح الأخوة الضرورية للتضامن بين الشعوب المكوِّنة للدولة

(الإمبراطورية)، أقول: في ذلك الوقت أخذ نموذج (دولة المواطنة) يؤسّس له أرضية ثابتة في العالم الغربي؛ فبعد مخاض طويل في أوروبا وصراع مرير ومستمر مع سلطة الكنيسة جاءت (دولة المواطنة) لتعيد تأسيس العلاقة بين الشعب والحكومة على قواعد ومفاهيم جديدة.

في دولة المواطنة تتشكّل العلاقة بين المواطن والدولة على أساس البرنامج السياسي الذي يقدِّمه الحزب الحاكم، وفي إطار الإنجازات العملية والأهداف المشتركة.

في دولة المواطنة ليس هناك أي معنى ذي قيمة - حسب المعلن - لأخوة العقيدة أو وحدة الملة، وليس هناك اهتمام بانخراط المواطنين في مبادئ ومُثُل واحدة، كما هو الشأن في التربية الاجتماعية والسياسية في الإسلام. وإنما ينصرف الاهتمام كله إلى توليد درجة عالية من الولاء للقانون ولدولته؛ بالإضافة إلى تأسيس معنى الحرية على أوسع نطاق بوصفها أصل المواطنة، وتأكيد معنى الأخوة الجديدة، والتي تقوم على الاشتراك في الحقوق والواجبات الواحدة والموحدة بقطع النظر عن الانتماء العقدي أو العرقي أو اللغوي...

في دولة المواطنة - على مستوى التنظير على الأقل - لا يخضع الفرد ولا الطائفة ولا المجموعة لقوانين ثابتة وأبدية تحدِّد موقفه الاجتماعي أو السياسي، وإنما يتم إبداع مبدأ

المواطنة ومتطلباتها من خلال كل شخص في الدولة دون استثناء أو وصاية من أحد داخل الإطار الاجتماعي.

تداول السلطة، وحق كل مواطن في تجاوز التراتبية الاجتماعية التي حتمتها ظروف النشأة، من الأمور الأساسية والمهمة في دور المواطنة؛ ومن ثمّ فإنّ كل الأفراد والأعراق والشعوب التي كانت تشعر بشيء من هضم حقوقها أو وجود حقائق من أي نوع تحول دون تسنمها قمّة الهرم، سارعت إلى العمل على الالتحاق بركب هذه الدولة، بوصفها النموذج الذي سيحقّق كل الأحلام، ويحل كل المشكلات. وبقطع النظر عن جديّة كل هذا ومصداقيته فإن الذي يطّلع على كتابات كثير من المسلمين وغيرهم في القرن العشرين يدرك بسرعة تشوُّق الناس إلى الظفر بالنموذج الجديد؛ ولا يستطيع الأكراد أن يشكلوا استثناء من هذا التيار الجارف.

● يمكن القول: إن (الهُويّة) هي مجموع الصفات التي تميّز أمّة أو شعبًا أو حزبًا أو فردًا من غيره. ويقدِّم الإسلام لأتباعه هُويّة عامة وواسعة، تميّز أتباعه من غيرهم، وتعرّفهم ذواتهم في حالة استحضار خصائص أبناء الديانات الأخرى. وداخل الهويّة الإسلامية هناك طيف من الهويّات التي تتأسس على أساس الإقليم أو القبيلة أو اللغة أو المهنة. وينتهي بنا الأمر إلى أن يكون لكل واحد منّا هويّته الخاصة التي يتميّز بها من أقرب الناس إليه.

الهويّة أشبه شيء بالصحة، لا نشعر بها إلّا إذا أصبحت مهدَّدة. أما في الأحوال العادية فإنّنا لا نعيرها أي اهتمام. ولا ريب أن الأكراد هويتهم الخاصة داخل إطار الهوية الإسلامية العامة، وتلك الهوية تستمد من عبقرية المكان الذي يعيش فيه الناس.

والآن وبعد كل هذه المقدّمات الطويلة يمكننا أن نفهم جوهر المشكلة الكردية على نحو أعمق.

بانفراط عقد الدولة العثمانية، وبالتغيير الجذري الذي طرأ على موقف الحكومة هناك من الارتباط بالإسلام، تهدَّم الإطار للدولة التقليدية التي كانت تحكم باسم الإسلام، وباسم الهويّة العامة للأمّة الإسلامية، وتمّ تقسيم كردستان بين الدول التي أشرنا إليها. ومن الواضح أنه ليس هناك دولة واحدة من الدول التي وزِّع الأكراد عليها وأُلحقوا بها عاملتهم على أساس الهويّة الإسلامية الجامعة، فيشعرون أنّهم إخوة لأبناء تلك الدولة في العقيدة والدين. ومن الواضح كذلك أنّ تلك الدول لم يتمكن أيٌّ منها من تشييد (دولة المواطنة) فيشعر كل من ينضوون تحت لوائها أنّهم سواسية في الفرص والحقوق والواجبات والمهمّات.

إنّ الذي حدث فعلًا هو قيام دول على أساس قومي محض، أي إنّ المظلة الثقافية والقانونية التي كان الجميع

يأوون إليها تقلّصت لتظلّل بعض السكان، وليجد آخرون وعلى رأسهم الأكراد أنفسهم في العراء مواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة. هذه الوضعية كافية بمفردها لجعل الأكراد يبحثون عن شيء يجدون من خلاله أنفسهم، ويتّخذون منه منطلقًا لاسترداد حقوقهم. وكان ذلك الشيء بالطبع هو الهويّة الفرعيّة والتي كانت عبر حكم العثمانيين المديد شيئًا شبه منسي بسبب توفير الهويّة الأوسع والأشمل وهي الإسلام.

ولا شك أن عماد الهويّة الكرديّة هو اللغة والتاريخ الوطني المحلي بما يشتمل عليه من بطولات وإنجازات بالإضافة إلى العادات والتقاليد والرمزيات المحلية. ودخل الأكراد في صراعات دامية مع كل أو معظم الحكومات التي تبسط سيطرتها عليهم وعلى بلادهم. وكان الحسّ القومي لتلك الحكومات طاغيًا إلى درجة تجاهل الخصوصيّة الثقافيّة للأكراد على نحو سافر وفظّ.

إنّ التنوّع الثقافي لدى كل الأمم والدول هو دائمًا سلاح ذو حدين، فإذا أدير على نحو جيّد وبرفق وشفافية فإنّه يصبح مصدرًا للثراء والتلاقح والازدهار. أمّا إذا تمّ تجاهله، أو عُومل بقسوة وعنف فإنّه يصبح ذريعة ومنفذًا لتدخُّل الأجنبي. إن ما لا يستطيع غلاة القوميّين فهمه هو أنّه حين ينتشر الظلم، وحين تستخدم القوة الغاشمة في سياسة الناس، فإن المظلومين يجدون دائمًا المسوغات لاستباحة كل

المحرمات؛ حيث لا مُقدَّس مع الظلم.

ومن السهل والمألوف أن تصل تلك الاستباحة إلى القتل والاغتيال والتدمير والخيانة العظمى. وهذا ما جرى بالنسبة إلى الأكراد. ولا يستطيع أعظم القضاة أن يفصل في هذه القضية وأن يحدِّد الجاني الأكبر أو يحدِّد البادئ بالجناية؛ حيث تختلط الأوراق، وتندرس المعالم . وهكذا فقد اتُّهم الأكراد في العديد من المرّات بأنهم جعلوا أنفسهم عونًا للأجنبي ضد حكوماتهم؛ وبناء على ذلك فقد قامت تلك الحكومات أو معظمها بتهجير كثير من الأكراد من أماكنهم وإسكان بعض مواطنيها من غير الأكراد في ديارهم. وارتكبت بعض الحكومات مجازر وحشية ضدهم، وحُرموا من استخدام لغتهم، وعُوملوا على أنّهم جماعات غير موثوقة. ووصل الاضطهاد بالنسبة إليهم إلى حد عدم إجازة ذكر اسمهم، كما حدث في تركية؛ حيث كانوا يُطلقون عليهم اسم (أتراك الجبل).

يمكن بعد هذا أن نقول: إن من غير الممكن للأكراد اليوم أن يستعيدوا وحدة كردستان وإنشاء دولة كردية تحكمها؛ لأن كل الدول النافذة والدول ذات العلاقة بالمسألة الكردية مجمعة على أنه لا يصح لحقائق التاريخ أن تغيّر حقائق الجغرافية.

ومن الحكمة للمرء ألّا يضيّع الممكن في طلب المستحيل، والحكم الذاتي الذي يطالب به الأكراد لا يشكّل حلًّا

إستراتيجيًا وناجعًا.

وفي ضوء هذا فإنّي أظن أنّ الحل الأمثل بالنسبة إليهم يتمثّل في العمل مع باقي إخوانهم المسلمين في أوطانهم على إيجاد إطار سياسي يستوحي الإسلام بوصفه مصدر العقيدة والنظام الرمزي للأكراد والفرس والعرب، والعمل على استعادة معنى الأخوة الإسلامية الجامعة؛ بالإضافة إلى ترسيخ معاني العدل والشورى والنزاهة والاستقامة الإدارية...

وإذا استطاع الأكراد التفكير على هذا المستوى فإنّهم يتحوّلون من شعب مُضطهد ومُستضعَف إلى شعب رائد يقدِّم الأمل، ويرسم ملامح المستقبل والنموذج الأمثل لمئات المسلمين في العالم.

وإذا كان هذا الخيار بعيدًا أو مرفوضًا؛ فالخيار الأخير هو صيغة من الحكم تقوم على أساس المواطنة، كما هو الشأن في أوروبا وأمريكا ودول عديدة أخرى؛ حيث يتم إلى حد بعيد تحييد الاعتبارات الإثنية في معظم الشؤون العامة.

وأظن أنّ على الأكراد حتّى يصلوا إلى حل أو نصف حل لقضيّتهم أن يتحلّوا بالكثير من الصبر، وأن يقوموا بالكثير من العمل. ويظل العمل السلمي الجاد والدؤوب أقصر الطرق إلى المراد وأكثرها أمنًا وأمانًا.

* * *

المرأة نقطة مفصلية

كلما تفتَّح وعي الناس على واقعهم، وكلما تفتَّح وعيهم على ما بينهم من تباينات وتنوُّعات قفزت (قضية المرأة) لتكون أحد المحاور الأساسية في كل نقاش؛ بل إنّ كثيرًا من الاتجاهات والأحزاب الإسلامية وغير الإسلامية يجعلون من موقفهم من المرأة أحد أهم الدلالات على طبيعة اتجاههم وطبيعة نظرتهم للمسائل الوطنية الكبرى.

ولهذا فإنّ تناول مسائل إصلاح المرأة، يتّسم بحساسية خاصة لدى المجتمع، ولا يكاد يُطرح حتى يُثير العواصف والزوابع الإعلامية في كلِّ اتجاه، وعلى كلِّ مستوى؛ ولهذا فإنّ التناول له يتّسم دائمًا بالحيطة والحذر، ويحتاج إلى الكثير من الاحترازات.

ومن وجه آخر فإن كل الأمم - على ما يبدو - تجعل من المرأة المناط الأساس لشرفها، كما تجعل منها ما يشبه المؤتمن على تواصل الأجيال على المستوى الأسري، وكأن هزّ المرأة للمهد جعل منها القيِّم الأوّل على عملية نقل التقاليد الشعبية واستمرارها عبر العصور.

لا أستطيع في هذه الكلمات أن أقول كل ما يجب قوله؛

فلأقتصر إذن على ما أراه أكثر أهمية، وذلك عبر الحروف الصغيرة الآتية:

١ - لا يستطيع أحد فينا أن يزعم أنّ أحوال المرأة المسلمة على خير ما يرام، فنحن نشكو من سوء حال المرأة المسلمة، كما نشكو من سوء حال الرجل المسلم؛ بل إنّه ليس في الغرب أو الشرق من يستطيع أن يدّعي أنّ أحوال نسائه ورجاله مستغنية عن الإصلاح. وإذا كان في الدول الغربية مَن يتّخذ من الحديث عن أوضاع المرأة المسلمة عامة والمرأة العربية خاصة وسيلة للضغط علينا ووسيلة للتدخُّل في شؤوننا، فإنّ هذا لا ينبغي أن يدفعنا إلى التباطؤ في تنمية المرأة المسلمة ودفعها نحو الأمام.

نحن مِنْ حيث المبدأ مع كلّ مَنْ يدعو إلى الإصلاح كائنًا مَنْ كان، ولكلّ مَنْ يساعدنا عليه الشكر والعرفان.

٢ - من المهم أن نعترف أنّه على مدار العقود الخمسة الماضية - ولك أن تقول القرون - كان جُل اهتمامنا مصروفًا إلى صيانة المرأة المسلمة والتفكير في المحافظة عليها، ومنعها من الاختلاط بالرجال. صرفنا (٨٠٪) من جهودنا في ذلك، وصرفنا (٢٠٪) منها على صعيد تنميتها وإعدادها للمهمّات الملقاة على كاهلها. وكان علينا أن نفعل العكس من ذلك.

إنّنا لا نختلف في أهميّة حجاب المرأة، وأهميّة إبعادها

عن مَواطن الفتن، وإبعاد مَواطن الفتن عنها، لكنّ هذا يجب أن يتساوق مع وفير البرامج والأُطر والآليات التي تساعدها على أن تكون الزوجة والمربِّية والداعية والمواطنة الصالحة والمنتجة. ولو أنّنا تساءلنا عن المؤسّسات التي توفِّر ذلك لم نجد إلّا القليل، والقليل جدًّا مما يمكن أن نتحدث عنه.

٣ - إنّ الغرب حين يطالب بإصلاح أوضاع المرأة المسلمة - وكذلك الذين يحتطبون بحباله - ينظر إلى واقع المرأة لدينا وإلى ما يجب أن تكون عليه من أفق ثقافته ورؤاه الحضارية، وبما أنّ الغربيين يجعلون من ثقافتهم ومن منجزاتهم مرجعيّة كونية شاملة ومتفرِّدة؛ فإنهم لا يستطيعون أن يُدركوا أنَّ العالم وإن كان يستظلُّ بحضارة واحدة ، هي حضارتهم، إلّا أنّه يحتفظ لنفسه بتنوُّع ثقافي هائل.

ونحن المسلمين لسنا راضين عن وضع المرأة الغربيّة، كما أنّ ما اقْتَبَسَتْهُ بعض الدول الإسلامية من الغرب على صعيد المرأة سبَّب لنا مشكلات كثيرة، ولم ننتفع منه بشيء ذي قيمة؛ ومن ثَمَّ فإنّنا لا نجد لدى الغرب النموذج المنشود للمرأة المسلمة. إنّ أمَّة الإسلام وهي تُحاول النهوض بأوضاع المرأة لديها لا تنطلق من فراغ تشريعي أو معرفي، كما أنّها ليست الأمّة الطارئة على التاريخ، ولا الأمّة التي تشكو العوز على مستوى الأعراف والتقاليد والدلالات الرمزية. إنّنا بمعنى آخر نملك على مستوى الفلسفة وعلى مستوى التشريع

منظومة من القيم والمفاهيم والأحكام التي توجّه كل حركات النهوض والتقدُّم على الصُعُد كافة بما فيها صعيد المرأة. وإنّنا بالتالي نعتقد أنّ الإصلاح الذي يرمي إلى نزع قضية المرأة من تلك المنظومة ليس بإصلاح، وإنما هو تخريب.

تحريم الله - تعالى - للزنا يستلزم بداهة تأسيس أوضاع، تساعد الرجال والنساء على العفاف من نحو البعد عن اختلاط الجنسين والبعد عن كلّ ما يهيّج الغرائز.

إنّ كثيرًا من الذين يطالبون بإصلاح شؤون المرأة وفق ما هو سائد لدى العالم الصناعي لا يعيرون أي انتباه لمسألة مهمّة، هي أنّ التقدُّم على النحو الممتاز يظل مرتهنًا للانسجام بين معتقدات المرء وسلوكاته وأوضاعه العامة. كما أن التوجيهات والتشريعات الإسلامية تعمل مجتمعة في إطار منظومة واحدة، وإنّ إدخال أي تعديلات جوهرية على أيّ جزء من أجزاء المنظومة يعوق أداءها الكلّي.

٤ - إذا تركنا الثوابت التي لدينا في القضايا المتعلّقة بشؤون المرأة، فإنّنا سنغادرها إلى اجتهادات وتجارب بشرية قاصرة وصادرة عن رؤى إقليميّة وجانبيّة محددة (والعقل لا يصدر دائمًا إلّا عن رؤى جزئية)، وتلك الاجتهادات متغيّرة ومتجدّدة، والارتباط بها لا يعني التبعية لما هو مرحلي ومتطوّر فحسب؛ لكنه يعني أيضًا إحداث تصدُّعات في البنى العميقة داخل مجتمعاتنا وتشتيت القوى الاجتماعية

بين متمسّك بالقديم ولاهث خلف الجديد؛ وليس في هذا مصلحة لأي أحد فينا.

حين غزا الأوروبيون أفريقيا في القرن التاسع عشر أبدوا استهجانهم لتكشُّف المرأة الأفريقية وعدم اهتمامها بستر جسدها؛ حيث كانت المرأة الأوروبية آنذاك تلبس ثيابًا طويلة سابغة، كما كانت تضع شيئًا على رأسها.

واليوم تجاوز العري الأوروبي كل مقاييس الحشمة، وصار ما هو دارج حجّة أخلاقية وقانونية يمكن الاتكاء عليها بعيدًا عن أي نصوص دينية أو موروثات ثقافية. وتجاوز الأمر ذلك أيضًا إلى أنّه يضيق بلد ذرعًا بقطعة قماش تضعها مسلمة على رأسها، وتصدر القوانين الحاظرة لذلك، مع أنّ ذلك البلد يوصَف بأنّه مركز التنوير والإشعاع الحضاري والديموقراطي الأول!!

٥ - إنّ الاختلاف التشريحي والفيزيولوجي بين الرجل والمرأة حدّد في الحقيقة إلى مدى بعيد الدور الأساس لكلٍّ منهما في الحياة، فكون المرأة هي التي تحمل وتلد وتُرضع، جعل من الأمور الطبيعية أن تهتم هي بشؤون الأسرة، وليس الرجل، كما جعل من الطبيعي أيضًا أن تمكث في البيت أكثر من مكوث الرجل. وهذا يؤثّر على مجمل خبراتها الحياتية، ويجعل أداءها لكثير من الأعمال خارج المنزل لا يتم

بالكفاءة التي تبدو في أداء الرجل؛ ولهذا فإنّ المرأة لم تستفد من تشريعات المساواة المطلقة مع الرجل في كثير من بلدان العالم سوى القليل؛ ولا سيّما على صعيد الوظائف العليا؛ فنسبتهن بين رؤساء الدول والوزراء والأمناء والمدراء العاملين متدنِّية جدًّا، ثمّ إنّ كون المرأة أخف وزنًا من الرجل وأصغر حجمًا منه، جعلها غير قادرة على مباشرة الأعمال التي تتطلّب درجة عالية من القوة البدنية. وهكذا فالدول التي جنّدت النساء في جيوشها تكل إليها القيام ببعض الأعمال الإدارية، ولا تكلّفها في الغالب بمباشرة القتال.

وفي الولايات المتحدة انتهت بعض الدراسات والإحصاءات إلى أن الشرطية الأمريكية تستخدم السلاح، وتقتل من المطاردين أكثر مما يفعله الشرطة الذكور بسبب ضعف القوة البدنيّة لدى النساء وتوافرها لدى الذكور.

ولا يخفى أنّ بعضًا من سوء معاملة المرأة وبعضًا من الظلم الذي يقع عليها في أنحاء المعمورة، يعود إلى ضعفها البدني مقارنة بالرجل. وإنّ تأجّج العاطفة لدى المرأة إلى حد السيطرة شبه الكاملة على القرار الشخصي وعلى المحاكمة العقلية - ولا سيما في أوقات الغضب - يفسّر حكمة إعطاء إدارة الأسرة والقوامة للرجل، وجعل الطلاق في يده على نحو عام، وليس في يدها.

إنّ كثيرًا من الخديعة للنساء والكثير من التلاعب بهنّ وتوظيفهنّ من قبل بعض الرجال في أعمال غير أخلاقية، يتم بوصفه حصيلة نهائية لكلّ العوامل التي أشرت إليها.

وقد أشارت إحصائية حديثة إلى أنّه للمرة الأولى في التاريخ تتجاوز نسبة المواليد غير الشرعيين في بريطانيا نسبة المواليد الذين وُلدوا داخل مؤسسة الزواج. وفي هذا عبرة لمن يستطيع أن يعتبر!.

٦ - نحن ننظر إلى الاختلاف بين الرجل والمرأة على كلّ المستويات، وفي كلّ الملامح على أنّه جزء من عمليّة التناسق الكبرى التي بثّها البارئ - سبحانه - في هذا الكون؛ فكون قيام الأسرة يُشكّل أحد أبرز معالم الحياة الاجتماعية في الرؤية الإسلامية اقتضى وجود الاختلاف بين الرجل والمرأة؛ حيث يأتي الانسجام هنا من التباين، وليس من التناظر على قاعدة: « نختلف لنأتلف »، فزيادة العاطفة لدى المرأة تُرطِّب أجواء الأسرة، وتُلطِّف العلاقات داخلها، كما أنّها ضرورية جدًّا لأداء الخدمة الشاقة في تربية الأطفال.

وزيادة درجة المحاكمة العقلية لدى الرجل تساعد على ترشيد قرارات الأسرة، وتوجّهها الوجهة الصحيحة. ويحدث الكثير من الخلل حين تتراجع العاطفة لدى المرأة، وحين تطغى لدى الرجل.

كما أنّنا ننظر من وجه آخر إلى الاختلاف بين الجنسين على أنه مَعْقد الابتلاء في الحياة الاجتماعية؛ إذ على الرجل أن ينظر إلى التباين بينه وبين المرأة على أنّه أداة اختبار له، وعلى المرأة أن تفعل مثل ذلك، وهذا البديل الجيد عن أن ينظر كل منهما لنفسه على أنّه محور وعلى الآخر الدوران في فلكه.

٧ - إنّ أحد أهم المنطلقات في مسألة النهوض بالمرأة المسلمة يتجسَّد في النظر إلى أن الأصل في واجبات الرجال والنساء واحتياجاتهم وحقوقهم وآفاق نموّهم والفرص التي يجب أن تتاح لهم هو التوحُّد والتشابه، وليس الخصوصية والتباين، إلّا ما دلّت النصوص الصحيحة الصريحة والأحكام المعتمدة على الاختلاف فيه.

وهذه النظرة مخالفة على نحو جذري للنظرة التي تجعل من التباين بين الجنسين أصلًا؛ ومن ثمّ فإنّ على من يدَّعي التماثل الإثبات بالأدلة والبراهين. يقول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٤]. وقال: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦] وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ

وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥] وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١].

إنّ حاجات المرأة البدنيّة والروحيّة والنفسيّة والترويحيّة والأدبيّة والمعيشيّة لا تختلف عن حاجات الرجل، وينبغي العمل على تلبيتها في إطار خصوصيّة المرأة ووفق حدود الشريعة الغرّاء.

وللمرأة على الرجل حقوق كما أنّ للرجل على المرأة حقوقًا، وقد قال سبحانه: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وقد كان ترجمان القرآن ابن عباس يقول انطلاقًا من هذه الآية: « إنّي لأحبُّ أن أتزيَّن لزوجتي كما أحبُّ أن تتزيَّن لي ».

وذُكر أنه قال في تفسير الآية: « أي لهُنَّ من حُسن الصُّحبة والعشرة بالمعروف على أزواجهنّ مثل الذي عليهنّ من الطاعة فيما أوجبه اللّه عليهنّ لأزواجهنّ ».

وقد اختلف المفسرون في تفسير كلمة (الدرجة) على

أقوال، وقد ذهب ابن عباس إلى أنّ الدرجة إشارة إلى حضّ الرجال على حسن العشرة والتوسّع للنساء في المال والخُلُق، أي إنّ صاحب الدرجة ينبغي أن يتحامل على نفسه [1].

إنّ للمرأة المسلمة الحق في أن تتطلّع إلى تحقيق ذاتها، وإثبات وجودها، والقيام بدور ريادي في المجتمع عن طريق الدعوة إلى اللَّه - تعالى - وتثقيف الجيل، والمشاركة في الحركة الإصلاحية، والمساهمة في تنمية الاقتصاد، ودفع عجلة التقدُّم بما لا يؤثّر على وظائفها القائمة بها فعلًا من رعاية الأسرة وتنشئة الطفولة، وبما لا يتعارض مع الأطر الشرعيّة المعروفة في هذا الشأن.

إنّنا لا نستطيع - كما لا يستطيع غيرنا - أن نفصّل للنساء الأمور التي تتطلّع إليها، أو تحقّق ذاتها عن طريقها، فهذا شيء يشرطه الزمان الحاضر ونوعيّة الحالة الحضاريّة السائدة. ولا تختلف المرأة في هذا عن الرجل . المهم دائمًا مشروعيّة الأهداف ومشروعيّة الوسائل بالنسبة إلى كل منهما.

والحقيقة أنّ الأمّة اليوم بما تعانيه من ضعف في كلٍّ المجالات بحاجة ماسة إلى جهود كلٍّ أبنائها وبناتها، مما يجعل كثيرًا مما أشرت إليه على أنه حقوق، نوعًا من الواجبات الحضارية التي ينبغي إعداد المرأة للقيام بها والنهوض إليها.

---

(١) قال ابن عطية: وهذا قول حسن بارع.

٨ - يقول علماؤنا: الخير المحض نادر، والشر المحض نادر، ومعظم الأمور عبارة عن خير يشوبه بعض الشر، وشر يشوبه بعض الخير. وإننا انطلاقًا من هذا سنجد دائمًا بعض الميزات والإيجابيات لكثير من الأنشطة النسائيّة، كما سنجد أيضًا بعض المثالب والسلبيّات لكثير من ذلك. وعلينا من خلال معرفتنا بموازين الشريعة السمحة ومعرفتنا بسنن الله - تعالى - في الخَلْق بالإضافة إلى فهمنا لطبائع الأشياء ومنطقها أن نقوم بـ (تقويم) الإيجابيّات والسلبيّات لكلّ عمل من الأعمال، وكلّ نشاط من الأنشطة التي تحتاج إليها المرأة، وينبغي أن تساهم هي على نحو فاعل وواسع في توضيح الحاجات وتقويم الأنشطة، فما غلبت إيجابيّاته على سلبيّاته صارت سلبيّاته في حكم العدم، وما غلبت سلبيّاته إيجابيّاته، صارت إيجابيّاته كذلك، مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ تقديرنا للمزايا والنقائص كثيرًا ما يكون اجتهاديًا يَقْبَل الخلاف والجدل والرؤية المتعدِّدة.

وإذا كان هذا صحيحًا فإنّ على الأمّة أن توحّد كلمتها، وتتعاون على تطهير المجتمع من السلوكات والأوضاع المتَّفق على تجريمها والمتَّفق على سلبياتها وضآلة إيجابيّاتها، كما أنّ عليها أن تُبقي الباب مفتوحًا للحوار في الأمور المختلف فيها، وأن تتعلّم مع ذلك كيف تتسامح فيما يحتمل تعدد الرؤية وتباين النظر والتقدير من أفق الحكم الشرعي أوّلًا، ومن أفق

النظر العقلي والخبرة المتراكمة ثانيًا.

ومن الملاحظ في هذا الإطار أنّ كثيرين منّا لا يُظهرون أي استعداد للمناقشة في المزايا والعيوب، ولا ينفتحون على أيّ رأي مغاير لآرائهم في قضايا (المرأة) وقد استسهلوا خطر أي نشاط أو عمل أو إطار لمحوا فيه سلبية من السلبيات، غير مدركين للأضرار الخلقية والنفسية والاجتماعية التي تتعرّض لها المرأة بسبب كبح المبادرة لديها، وتضييق المجال الحيوي لنشاطها وحركتها.

إنّ على أهل الخير والغيرة على المرأة المسلمة أن يدركوا أنّ الزمان ليس ممتدًّا أمامهم إلى ما لا نهاية، وأنّهم إذا لم يسعوا على نحو جاد لإصلاح شأن المرأة من أفق مبادئهم ومنطلقاتهم ورؤاهم، فإنّ غيرهم سينجز المهمة وفق ما يراه، وعليهم آنذاك ألا يلوموا إلّا أنفسهم.

٩ - من المهم في كل مشروعات الإصلاح العامة وتلك الخاصة بالمرأة أن نركِّز على التثقيف والتربية بوصفها المورد الأكبر لبناء الإنسان من الداخل، وبوصفهما الأداة الأكثر فاعلية لتأسيس ذات حرة كريمة، تحركها المبادئ والقناعات الذاتية، ويكبح جماحَها الوجدانُ والضمير والوازع الداخلي. وقد بات هذا الأمر اليوم أكثر إلحاحًا؛ حيث أخذت العولمة تُهمِّش كل السلطات: سلطة الدولة،

والمجتمع، والأسرة، والمدرسة، وسينتج عن كلّ ذلك تدهور في سلطة الأعراف، والعادات، والتقاليد، ممّا يعني أهميّة استثنائية للرقابة الذاتية والمبادرة الخاصة.

التثقيف الجيّد القائم على الحوار، وتوسيع الأفق، وقبول النّقد، والنظر إلى الأشياء من زوايا متعدّدة - يساعد الأجيال الجديدة على الشعور بالمسؤولية من خلال شعورها بحريّة الاختيار. ومن الشعور بالمسؤولية تنبثق الشخصيّة، ويبزغ فجر الإنسان المبادر والمنضبط ذاتيًا.

وإنّ من المؤسف أنّنا على مدار التاريخ لم نكن نواجه انحرافات المجتمع وأمراضه وأشكال قصوره بتحسين مستوى التثقيف أو تطوير البنية التربويّة، وإنّما كنّا نواجه ذلك بالإفراط في استخدام القوّة، وسَنّ المزيد من النظم والقوانين الكابِتة للنّشاط والمُقيِّدة للحركة. وقد عبَّر عن هذه الوضعية عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ حين قال: « يُحدثُ للناس من الأقضية على مقدار ما يُحدثون من الفجور ».

ولم نحصل من وراء كلّ ذلك إلا على أقل القليل من الصلاح والاستقامة والتقدُّم، لكنّنا خرّجنا أجيالًا من الإمّعات والمهمّشين، وأجيالًا من ذوي السلوكات المتناقضة والنفوس الناقمة والتّطلعات المرتبكة.

إنّ التثقيف الجيّد يحتاج إلى وقت وإلى جهد وصبر لكن

نتائجه مذهلة! وإنّ طبيعة التديُّن الحق والالتزام الصحيح تتأبّى على القسر والإكراه، وتنمو وتنتعش مع التحفيز والتشجيع والعناية الفائقة.

١٠ - تواجه المرأة المسلمة العديد من المشكلات النفسيّة والاجتماعية والاقتصاديّة، وهذه المشكلات منها ما هو خاص بها، ومنها ما هو مشترك بين النساء جميعًا. وإنّ من سنة اللَّه - تعالى - في الابتلاء أنّ الذي يتحرّك في إطار مبادئه وقيمه يجد نفسه يتحرّك في مدى أضيق من المدى الذي يتحرّك فيه من يمضي وفق رغباته وشهواته المطلقة.

وهذه القيود والتكاليف تُثقل كاهل الإنسان؛ لكنّها في الوقت نفسه تشكّل وسائله وسبله إلى الرقي والسمو والنجاة. ومثلها في ذلك مثل جناحي النسر يثقلانه حين يكون على الأرض لكن بهما يبلغ طبقات الجو العليا. وأنا أشعر أنّ إحساس الرجال بحجم معاناة النساء ضعيف؛ وقد تعوّدنا إصدار الأحكام العامة دون الدخول في التفاصيل.

وهذا بعض ما أعتقد أنّه يشكّل أزمات عامة للمرأة المسلمة؛ على نسب متفاوتة:

- كثير من النساء يعانين من السأم والملل والفراغ بسبب أن لديهنّ في البيت من يخدمهنّ ويحملن عنهنّ عناء رعاية المنزل. وهناك عدد كبير آخر من نساء المدن والأرياف

يجدن أوقاتاً كثيرة في المساء لا يعرفن كيف يملأنها.

ونظرت المرأة إلى نفسها فوجدت أنّه ليس لديها رسالة سامية تسعى إلى نشرها وليس لها اهتمام بخدمة اجتماعية، تقوم بتأديتها، كما أنّه ليس لها هواية نافعة تقوم بممارستها... وكانت النتيجة ضيق الصدر وتراكم الهمّ. وكان الملاذ في الخلاص من الفراغ هو الجلوس أمام الفضائيات ومتابعة ما فيها من غث وسمين، واللجوء إلى التسوّق والتجوّل في الأسواق، وقد نمت النزعة الاستهلاكية لدى المرأة المسلمة والنزعة نحو التزيُّن على نحو سبقت به المرأة الأوروبية!

إنّ المرأة عندنا تتعامل مع المنتجات الاستهلاكية كما يتعامل السجين مع الطعام؛ حيث لا يجد ما يمارس حريته تجاهه سواه!

● كثيرًا ما نقول: إن الوظيفة الأساسيّة للمرأة هي رعاية شؤون الأسرة وتربية الأطفال. وهذا حق ولا جدال فيه، لكن ماذا تعمل العوانس اللواتي لم يتزوجن؟ وماذا تعمل امرأة لم تُنجب؟ وماذا تعمل امرأة كبر أولادها، ووجدت نفسها وحيدة بين أربعة جدران؟ وماذا تعمل امرأة تزوّجت وطُلِّقت؟ إنّ هذه الفئات تشكّل نسبة لا يُستهان بها بين النساء.

هذه الوضعية تحتاج إلى حلول مركّبة، قد يكون أوّلها

حفز المرأة على تكوين رسالة دعويّة أو اجتماعيّة أو خدميّة تحاول تأديتها والعمل من أجلها. وهذه مهمّة وسائل الإعلام في المقام الأول.

ومن تلك الحلول إيجاد أماكن للتسوُّق خاصة بالنّساء، ويمكن داخل تلك الأماكن إيجاد أنشطة تربويّة وتعليميّة وترفيهيّة في إطار المباح؛ فذلك يساعد على شغل الوقت بشيء نافع بعيد عن مواطن الفتن. ويظل الحل الأكثر نفعًا والأكثر إمكانًا هو إنشاء ما لا يحصى من المؤسسات والأُطر الخيرية والتدريبية والتعليمية التي تساعد المرأة على تنمية ذاتها وعلى أداء دورها في خدمة الأمّة. ونحن مقصّرون في هذا تقصيرًا كبيرًا.

وإنّ من المؤسف أنّ المرأة المسلمة تكاد تكون المرأة الوحيدة بين نساء الديانات المختلفة التي لا تذهب إلى مكان العبادة، مع صريح قوله ﷺ: « **لا تمنعوا إماء الله مساجد الله** ». وقوله ﷺ: « **إذا استأذنت أحدكم امرأته إلى المسجد فلا يمنعها** » [1]. ولا خلاف في أن على المرأة المسلمة إذا خرجت إلى المسجد أن تترك التزيُّن والتطيُّب، وأن تلبس اللباس الساتر.

إنّ كثيرًا من مساجدنا ليس فيها أي مكان مخصّص

---

(١) أخرج الحديثين مسلم في صحيحه رقم (٤٤٢).

للنساء، والأماكن المخصّصة في بعضها كثيرًا ما تكون ضيقة ومهملة. والعجيب أنّ كثيرين ممن يخشون من وقوع نسائهم في الفتنة إذا ذهبت إلى المسجد لا يجدون حرجًا في تجوُّل نسائهم في الأسواق الساعات الطوال من غير رجل يرافقهنّ، ولا يجدون حرجًا في الذهاب مع أهليهم إلى الحدائق العامة والسفر بهم إلى البلاد الأجنبية!!.

إن حضور المرأة إلى المسجد ليس من أجل الصلاة فحسب، وإنما من أجل الانتفاع بالموعظة وممارسة نشاط دعوي وتربوي وتعليمي، يمكن أن ينشأ في دوائر النساء إذا ما نحن ملكنا الرؤية الصحيحة لتنمية المرأة المسلمة.

• إن كثيرات من النساء يعانين الأمرَّين من مشكلة الاختلاط في الدوائر والشركات والمؤسسات، ويتعرَّضْنَ للكثير من الأذى والتحرُّش الجنسي، ولا أحد يهتم بهذا، ولا يسلِّط الضوء عليه. وبعض النساء يعانين من انحراف أزواجهنّ وسلوكهم طريق الرذيلة واستسهال الخيانة الزوجية، كما أنّ بعضهنّ يعانين من زوج مدمن على المسكرات أو المخدرات. وبعضهنّ يعانين من الزوج الذي يسهر مع (شلّته) إلى الفجر، ثم يعود إلى البيت لينام سويعات ثم يذهب بعدها إلى عمله، ثم يعود لينام ويأكل، ثم ينصرف إلى أصدقائه وهكذا!!.

هناك نساء كثيرات يعانين من ضرب أزواجهنّ لهنّ والاعتداء على أموالهنّ ورواتبهنّ، وهناك وهناك...

إنّ كثيرًا من هذه المشكلات جاءت به، أو زادت في تفاقمه الظروفُ الحضاريّةُ الراهنةُ، وإنّ كل هذا يحتاج إلى مواجهة شجاعة وحلول ناجعة. وأتصور أنّ علينا أن نقلّل من الاختلاط إلى الحد الأدنى، وأن نُنشئ أعدادًا كبيرة من الجمعيّات والمؤسّسات واللجان التي تسعى إلى تثقيف الرجال والنساء بأصول الحياة الأسرية وآدابها، كما تقوم بإصلاح ذات البين وحل المشكلات المتفاقمة بين الزوجين. كما أنّ علينا أن نُنشئ محاكم مستعجلة جدًّا أو ذات شفافية عالية من أجل الأخذ على أيدي الأزواج الظالمين والفاسدين والمهمِلين.

• لا بدّ أن نُنشئ المزيد من الأُطر لتوظيف المرأة للاستفادة من مؤهّلاتها. ونحن نقول منذ البداية: إنّ الوظيفة الأساسية للمرأة هي الأمومة والقيام بأعباء البيت والأسرة، لكنّ هناك نساء تعلّمنَ ونلنَ أعلى الشهادات والأُمّة في حاجة إلى عملهنّ وخبراتهنّ، وهناك نساء لم يتزوجنَ والوظيفة بالنسبة إليهنّ باب للرزق وملء للفراغ.

وفي ظل تراجع دخل الفرد في معظم الدول الإسلامية صار معظم الموظفين غير قادرين على توفير المال المطلوب

لحياة أسريّة كريمة، ويحتاجون إلى مشاركة زوجاتهم في تغطية نفقات الأسرة وهناك وهناك...

إن الارتقاء بالحياة يوفّر دائمًا المزيد من فرص العمل، وإنّ بعض الدول خاض تجارب ناجحة في توفير أعمال كريمة من خلال مشروعات (الأسر المنتجة). كما أنّ بعض الشعوب الإسلامية تتبع تقليدًا حميدًا في توفير معلّمين ومعلّمات ومؤدّبين ومؤدّبات على مستوى عالٍ من الاستقامة والمعرفة من أجل تهذيب وإرشاد الأولاد والبنات في البيوت. وأتصور أنّ سَنَّ تشريعات - في المدن على الأقل - لجعل الذهاب إلى رياض الأطفال منذ سن الرابعة إلزاميًا. سوف يقدِّم خدمة كبيرة للأسر وللنساء الباحثات عن عمل.

إننا حين نملك ما يكفي من العزيمة والوعي، فسنجد الكثير من الحلول، وسننجز إنجازات ضخمة للمرأة المسلمة والمجتمع المسلم.

* * *

الاستثمار في الإبداع

في نفوس معظم المسلمين في الأرض شعور بالدونية والإحباط بسبب المحصلات الفكرية والشعورية الراسخة في حياتنا العامة. وتلك المحصلات ناطقة بعجزنا عن الإبداع والاختراع في الوقت الذي ننهمك في الاستهلاك الذي يصل إلى حد الإسراف والتبذير، مما يعمّق في نهاية المطاف التبعية والحاجة المستمرة للآخرين.

وأعتقد أن الخروج من هذه الوضعية لن يكون أبدًا عن طريق ذكر مآثر السلف أو الفخر بصواب المنهج الذي أكرمنا اللَّه - تعالى - به. كما أننا لن نستفيد أي شيء من وراء ذكر العقبات والقيود وقلة الإمكانات وسوء الأحوال.. فما نحن فيه يعبّر بشكل صارخ عن قصور ذاتي وقلة وعي قبل أي شيء آخر.

إن فقد الوعي بأي شيء مهم يحوّله إلى شيء تافه، ويخرجه من قائمة الاهتمامات والأولويات ليكون في جملة المهملات والمنسيات. ولعلي أعرض ما أود قوله في هذه المسألة عبر المفردات الآتية:

١ - لن يكون في إمكاننا - ولا في إمكان غيرنا - مواجهة مخاطر تفكك الشخصية الإسلامية وتصدعها ووقف تفاقم مشاعر الخوف والإحباط والمهانة عند شعوبنا

من غير أن نعمل وبقوة وتعاون على تنمية ملكات الإبداع في ثقافتنا والاستثمار على أوسع نطاق في هذا الإبداع؛ حتى نوفر للفرد لدينا حاجاته المعنوية والفكرية على مستويات متقاربة مع ما تقدمه له الثقافات الكبرى المهيمنة، وحتى ننهض باقتصاد الأمة والذي يحتاج إلى الإبداع بوصفه المحرك الرئيس لكل الأنشطة المثمرة.

٢ - يقتضي نشر الوعي بالإبداع وأهميته أن نصحح المفاهيم المغلوطة حوله، كما يقتضي نشر المفاهيم التي تساعد على تكوين تصوّر صحيح لطبيعته ومتطلباته والأشياء المساعدة عليه. ومن هذه المفاهيم وتلك الآتي:

أ - إن كثرة النواهي والتحذيرات التي تطلقها الأسرة في البيت تضعف الإبداع، وتُساعد على تخريج جيل مدجّن، لا يحسن سوى الخنوع والامتثال. وقد دلّت بعض الدراسات على تناقض الإبداع مع تقدم سن الطفل؛ حيث يظل الصغير يسمع من أبويه وإخوته من يقول له: ماذا تفعل؟ هذا سخيف، هذا خطر، لا تشم هذا، لا تلمس هذا الشيء، هذا لا يليق بك... مما يؤسس في ذهنيته في النهاية أن الخطأ الخروج عن الدرب المعهود، وعن أطر التفكير السائدة في أسرته. ويصاحب كل هذا الثناء على الطفل الهادئ، قليل الكلام وقليل الحركة، والطفل الذي لا يعرف (لا)، ويستحي من خياله - كما يقولون - والثناء على الطفل

الذي لا يشعر به أحد، ولا يثير أي مشكلة مع أي أحد!.

ب - معظم الناس ينظرون إلى الإبداع على أنه موهبة فحسب، ومن هنا فالمسألة مسألة حظوظ، فمن واتاه الحظ يولد مبدعًا، ومن لم يولد مبدعًا، فليس عليه أن يتعب نفسه في الطموح إلى شيء من ذلك؛ لأنه لا فائدة ترتجى من وراء ذلك!

على حين أن الحقيقة الثابتة هي أن المواهب مجرد قابليات جاهزة لأشكال التعامل المتباينة؛ إنها أشبه بكأس فارغة، يمكن أن يوضع فيها الماء أو الخل أو العسل. وإن معظم الموهوبين من أبناء المسلمين يعيشون، ويموتون دون أن يدري بهم أحد، وذلك بسبب عدم وجود المحاضن والأطر التي تنمّي مواهبهم وتستثمرها.

جـ - الإبداع يعني أن يرى المرء المألوف بطريقة غير مألوفة. ويعني كذلك إيجاد شيء أصيل لا يتوقعه الناس. ويرون الطرق الموصلة إليه طرقًا غير متبعة ولا مسلوكة. وثمة سمات مشتركة بين المبدعين، منها المثابرة على التجريب، والقدرة على غربلة الأفكار، والإيجابية، وحب التغيير والتجديد، وقوة الملاحظة، والمقدرة على دمج الجديد في القديم؛ بالإضافة إلى المرونة الذهنية والقدرة على رؤية الأشياء من زوايا مختلفة، والقدرة على الربط بين الأشياء وتعليل الظواهر.. هذه السمات تكون موجودة بقوة لدى بعض الناس. والتربية الجيدة والتعليم والتدريب الممتاز، يساعد على

إظهارها وصقلها وتوجيهها. وبما أن الذكاء موزّع على الأمم بالتساوي؛ فخمود الإبداع لدى أمة لا يدل على شيء سوى إهمال تلك الأمة لأبنائها الموهوبين وعدم قدرتها على العناية بهم.

٣ - لا يعني الاستثمار في الإبداع بذل المال بسخاء فحسب، وإنما يعني قبل ذلك وبعده الاهتمام وبذل الوقت والجهد. والحقيقة أن تنشيط الإبداع على مستوى واسع يحتاج إلى تكوين بيئة تربوية وتعليمية واجتماعية، تدفع الناشئة والشباب نحو الأعمال والمنتجات الإبداعية وستكون البداية في الأسرة؛ حيث إن عليها أن تحاول استيعاب ما تستطيع استيعابه من أسس وطرق التعامل مع الموهوبين والأذكياء وطرق دعمهم وتشجيعهم. وأشعر أن بعض التقدّم يحدث على هذا الصعيد، لكن على نطاق ضيق. ويقف الفقر والجهل حاجزين أمام كثير من الأسر، فلا تتمكن من ملامسة المفاهيم التي نتحدث عنها.

المدارس هي الأخرى مطالبة بأن تخفف من الحفظ والتلقين لصالح التعليم عن طرق التفكير والاكتشاف، وتنمية عقلية إبداع الحلول والالتفاف حول المشكلات.

حدّثني شاب درس في إحدى الجامعات الغربية، قال: درسنا مقررًا في (الإبداع) وتوقعت أن نقدّم اختبارًا في

الكتب التي درسناها، لكن الأمر لم يكن كذلك؛ حيث ذهب بنا أستاذ المادة إلى حديقة حيوان قريبة من الجامعة، وطلب من القائمين على الحديقة أن يقدموا لنا شرحًا مستفيضًا عن المشكلات التي تواجههم، وقد قاموا بذلك، ثم قام الأستاذ بتقسيمنا إلى مجموعات، كل مجموعة مكونة من طالبين، وطلب منا أن نقرأ حول المشكلات التي سمعناها، ونحاول تقديم حلول لها. وعلى مقدار ما يكون الحل ناجعًا وعمليًا تكون الدرجة التي تحصل عليها المجموعة. قارنْ هذا مع الاختبارات التي تجري في معظم جامعاتنا لتعرف الفرق بين من ينمي الإبداع، ومن يقتل الإبداع !.

الإبداع لا ينتشر على مستوى واسع من غير تشكيل بيئة تحتضنه، وتحفز عليه.

إن البيئة - على نحو عام - تتألّف من أفكار ومفاهيم وعادات ونظم إلى جانب الدوافع والمحفزات والمتطلبات والآليات؛ ومن ثم فإن نشر المفاهيم الجيدة عن الإبداع لا يشكّل سوى خطوة أولى وضرورية على طريق طويل. الإنسان كائن مستهلك ، يستهلك الأشياء والطرز والأفكار والنظم.. مما يجعل اللجوء إلى الإبداع شيئًا لا مفرّ منه؛ لأن البديل عن ذلك هو السأم والملل من جهة وفقد الأشياء لجاذبيتها وصلاحيتها من جهة أخرى؛ حيث تعلو الحياة الكآبة والشعور بالتقادم والدنو من عتبة الفناء.

لكن التفكير والإبداع والتجديد أمور شاقة ومكلفة، وإلّا لكان كل الناس مبدعين ومجددين.. ومن هنا فإن الناس لا يبدعون بمجرد شعورهم بأهمية الإبداع أو بدافع الخوف من التراجع أو الانحطاط، وإنما يحتاجون مع ذلك إلى أن يتقلبوا في أجواء تم تصميمها عن قصد لجعل الإبداع جزءًا من أسلوب الحياة وجزءًا من متطلبات العيش الكريم، وهذا في الحقيقة يستدعي إحداث عدد من التغييرات في مختلف جوانب الحياة. وهي كثيرة، ومن أهمها:

٤ - اتخاذ قرار إستراتيجي بالتحول من التجارة إلى الصناعة، ومن الاستيراد إلى محاولة الاكتفاء الذاتي، كما فعلت كل دول العالم التي توصف اليوم بأنها دول صناعية أو نصف صناعية. اتخاذ هذا القرار يقتضي رفع قيود الجمارك عن المواد الخام المستوردة من أجل التصنيع، وزيادة الرسوم على الكماليات.

والمقصود إيجاد وضعية جديدة يشعر فيها كثير من أصحاب رؤوس الأموال أن تصنيع الأشياء يدر عليهم أرباحًا أكثر من استيرادها والمتاجرة فيها. أليس من المؤسف ومن غير المفهوم أن يشكّل العالم الإسلامي قرابة ربع سكان العالم، ولا يكون لدى أي دولة من دوله سيارة وطنية، يتم تصنيعها بالكامل وتسويقها عالميًا على الرغم من اتساع السوق وكثرة الأموال والخبرات؟! ولكن لا عجب؛ فالأمة حين تفقد إرادة

الإبداع، فإن كل ما تملكه من إمكانات مساعدة وكل ما تملكه من ظروف مواتية.. يتحول إلى أشياء لا معنى لها ولا قيمة؛ وهذا ما نشاهده عندنا اليوم.

٥ - إن تحويل المدارس إلى بيئة إبداعية يتطلب أشياء أكثر من تطوير أسلوب التعليم؛ إنه يحتاج إلى تقليل عدد الطلاب في الفصول، ويحتاج إلى إغناء المدارس بوسائل الإيضاح وبالمعامل والمختبرات وتوفير المواد اللازمة لتشغيلها بكفاءة. وإذا كانت الدول غير قادرة على هذا فمن واجب الأهالي وأثرياء البلد المساهمة في ذلك إذا ما أردنا لأبنائنا أن يتلقوا تعليمًا أفضل من التعليم الذي يتلقونه الآن.

٦ - زيادة الإنفاق على البحث العلمي، وتشجيع الباحثين في الجامعات وفي مراكز البحوث. إن واقع البحث العلمي لدينا يفسّر قلة المبدعين؛ فالدول المتقدمة تنفق في المتوسط على البحث العلمي ما يزيد قليلًا على (٢٪) من مجمل ناتجها القومي. وهي نسبة كبيرة جدًا إذا ما نظرنا إلى ضخامة الأرقام لديهم.

إن دولة مثل اليابان تنفق على البحث العلمي ما يزيد على تسعين مليار دولار سنويًا. وينفق اليهود في فلسطين المحتلة على البحث العلمي أموالًا هائلة تشكّل في مجموعها نسبة أعلى من نسب بعض الدول المتقدمة. الدول العربية تنفق على البحث العلمي ما معدله اثنان بالألف، أي أقل من

عشر المعدل العالمي. وبعضها لا ينفق واحدًا على خمسين من المعدل العالمي بسبب تأخرها الشديد.

٧ - لا قيمة للأفكار والمعلومات من غير (نماذج) تفتح طرقًا في الأرض الوعرة، وترشد الناس إلى الإمكانات الكامنة. نحن في حاجة إلى أن يتجلى الإبداع في هيئات ومؤسسات وأساليب ومناهج.. حتى يتأسى الناس بما يشاهدونه، ويحاولوا تقليده أو الاقتباس منه أو التفوق عليه، نحن في حاجة إلى الأسرة النموذجية والروضة والمدرسة والجامعة النموذجية، كما أننا في حاجة إلى المصنع النموذجي والمشفى النموذجي.. إن النموذج يرفع سقف ما هو سائد في مجاله، ويوسّع المجرى، فترتقي معايير الجودة، وتحدث النهضة. وسوف نحصل على ما نريد إذا حرص (٥٪) من الأمة على تقديم نماذج متفوقة في مجالات ومناحي الحياة المختلفة.

٨ - الإبداع يعني تركيز التفكير والتعلم والتدرب والإنفاق من أجل الوصول إلى ما عجز الآخرون عن الوصول إليه. وإذا رأينا حالات وأوضاعًا مختلفة فإن ذلك كثيرًا ما يكون نتيجة (التركيز) وحشد الطاقات للنهوض بشيء معين. وتقدِّم كورية الجنوبية نموذجًا في التركيز، وتقدِّم دليلًا حيًّا على الازدهار الذي يمكن أن ينجم عنه.

وقد خرجت كورية من أتون الحرب في الخمسينيات من

القرن الماضي باقتصاد ضعيف، شبّهه بعض الاقتصاديين باقتصاد مصر بعد الثورة. وخلال خمسين سنة تحوّلت كورية الجنوبية من دولة كانت تصنّف بين أفقر ثلاث دول في آسيا إلى دولة يُشكّل اقتصادها ثالث اقتصاد بين اقتصادات آسيا بعد الصين واليابان!! وإذا كانت الصادرات تشير إلى حجم التقدم والازدهار فإن اقتصاد كورية يُعد من أكثر اقتصادات العالم تطورًا؛ حيث تدل آخر الإحصاءات على أن قيمة الصادرات الكورية قد بلغت نحوًا من مليار دولار يوميًا، معظمها من السيارات والآلات المصنعة والتقنية المتقدّمة!!

ويقول نائب رئيس شركة (إل جي): إن بلاده تفتقر إلى الموارد الطبيعية، لكنها مع ذلك استطاعت خلال عقدين من الزمن أن تضع نفسها على الخريطة الاقتصادية العالمية. وأضاف: إنّ كورية تنبهت منذ السبعينيات إلى أن التعليم هو مفتاح الانطلاق الاقتصادي والتنمية؛ مما دفع الدولة إلى إعادة صياغة المناهج التعليمية وركزت على العلوم و (التكنولوجيا) والبحث العلمي والجامعات. كما أنها بنت معاهد متخصصة في عدد من المجالات، وخصصت لها جزءًا كبيرًا من موازنتها السنوية.

المدارس الكورية تحتل مرتبة متقدمة جدًّا بين مدارس العالم في تدريس العلوم والرياضيات. ولدى الكوريين أكبر

عدد من المهندسين بالنسبة إلى عدد السكان. وقد آتى كل ذلك ثماره، فسجلت في العام الماضي ستة عشر ألف براءة اختراع مع أن عدد سكانها نحو من (٤٤) مليون نسمة. وسجل العرب الذين تجاوز عددهم ثلاث مئة مليون نسمة نحوًا من (٥٠٠) براءة اختراع!.

ليس معظم الكوريين أذكياء، وليس معظم العرب أغبياء، لكن الكوريين يعرفون كيف يحتفلون بالإبداع، وكيف يوظفونه؛ والعرب يعرفون كيف يضيعونه ويبددونه!.

إذا لم يستطع المرء أن يتعلم من مبادئه وتاريخه وتراثه، فلربما استطاع أن يتعلم من خصومه وجيرانه ومنافسيه.

* * *

نوعيّة الحياة

وصفوا القرن التاسع عشر بأنه قرن (التفاؤل) بسبب كثرة الفتوحات العلمية التي حدثت فيه. ووصفوا القرن العشرين بأنه قرن (التشاؤم) بسبب اشتماله على حربين عالميتين وأكثر من مئة حرب إقليمية ومحلية. أما القرن الحادي والعشرون والذي ما زلنا في بدايته، فلا ندري الاسم الذي سيكون لائقًا به في نهاية المطاف، لكن بعض أصحاب الرؤى الإستراتيجية يرون من الآن المسارعة إلى تسميته بقرن (التعقيد).

وأعتقد أنهم محقون في هذه التسمية. وسبب وجاهة هذا هو أبرز ملامح التطورات المتسارعة التي نشاهدها على كل صعيد هو (التنوّع)؛ تنوّع في الطراز، وتنوّع في العناصر المكونة للمصنوعات، وتنوّع في الفهم وفي التفسير للنصوص والأحداث، وتنوع في الأمراض والمشكلات والأزمات، يصحبه تنوع في الحلول والأدوية والعلاجات..

وإذا تساءلنا عن أكثر الأشياء ملازمة لـ (التنوع) فسنجد أنه (التعقيد). وإذا تساءلنا مرة ثانية: ما الذي يترتب على التعقيد؟ أو ما الذي يلازمه لوجدنا العديد من الأشياء التي يمكن أن نتحدث عنها؛ لكن لعل ما يهمنا منها ثلاثة، هي:

١ - **ارتباك الوعي**؛ حيث إن الوعي الأكثر قدرة على استيعاب

الأمور المعقدة هو الوعي الذي تشكل ونما في بيئة صناعية. أما الوعي الذي تشكّل في بيئة رعوية أو زراعية، فإنه يجد صعوبة بالغة في فك رموز التركيبات الشديدة التعقيد. وهذا هو حال الوعي لدى معظم المسلمين؛ حيث إنه ليس هناك أي دولة إسلامية يمكن أن توصف بأنها (دولة صناعية) بمعنى الكلمة!.

٢ - **صعوبة السيطرة؛** إذ من الواضح أن التعدد الذي أنتج التعقيد، يدفع في اتجاه العجز عن إدارة الأشياء المعقدة والتحكم التام بها. خذ مثالًا على ذلك السيطرة على التدفق الثقافي الأجنبي. وخذ السيطرة على موضوع (الاستنساخ) هذا العمل البالغ الخطورة والذي يمكن أن يتم في شقة مستأجرة! وخذ السيطرة على تلوث البيئة وارتفاع حرارة الأرض. إن كل هذه الأشياء ومئات الأشياء على شاكلتها باتت خارج السيطرة، وهذا شيء مقلق ومخيف.

٣ - **المرونة؛** حيث إن من شأن كثرة العناصر التي أدت إلى التعقيد أن تنتج قدرًا كبيرًا من المرونة في التعامل مع الأشياء على صعيد إيجاد تكوينات جديدة، وعلى صعيد إيجاد حلول للمشكلات القائمة. إن بعض العطور اليوم مكوّن مما يزيد على ستين عنصرًا كيميائيًا، وهذا التعقيد والتنوع يتيح الحصول على مئات الروائح من خلال التغيير في كميات العناصر المكونة؛ ولهذا فالتنوع يأتي بالتعقيد ويأتي بالمرونة في آنٍ واحد، وهذه معادلة غير مألوفة.

الذي نخلص إليه من وراء هذه المقدمة هو أن العيش في عصر سمته (التعقيد) يتطلّب منا أن نطوّر منهجيات معقدة إذا أردنا القيام بمواجهة ناجحة للمشكلات التي أخذت تُغيّر ملامح حياة الإنسان المسلم، وتسبب له الكثير من الألم والأذى. إن ما نواجهه من مشكلات لم يحدث بمحض الصدفة، ولا بوصفه ناتجًا طبيعيًا لتفاعلات بريئة هي جزء من ثمن التحضّر..

إن هناك جهات كثيرة تسعى إلى تحقيق مصالح خاصة، وطبيعة تلك المصالح تقتضي إدخال تغييرات سيئة على الحياة الشخصية لأعداد كبيرة من البشر. وتلك الجهات تستثمر أموالًا وخبرات عظيمة وهائلة في سبيل الوصول إلى أهدافها؛ ومن ثم فإن ردود الفعل العشوائية والخجولة التي تصدر من هنا وهناك، ستكون قليلة الجدوى. إن التخريب الواعي والمنظم يجب أن يقابل بإصلاح على شاكلته، وإلّا كنا كمن يحاول علاج السرطان بـ (الأسبرين) أو إسقاط طائرة بمسدس!

نحن في حاجة إلى قيام مشروع وطني في كل قطر إسلامي يكون همه الأكبر مراقبة (نوعية الحياة) ورصد التطورات الإيجابية والسلبية التي تطرأ على سلوكيات الناس وعاداتهم ومواقفهم المختلفة. هذا المشروع يحتاج حتى يخدم الأغراض التي أنشئ من أجلها إلى تشكيل عدد كبير من الهيئات والجمعيات والأنشطة المتخصصة.

وستكون المهمة محاولة بلورة معايير ومواصفات للحياة الطيبة التي تليق بالمسلم المعاصر على المستوى الروحي والخلقي والاجتماعي والصحي والمهني.. ثم العمل على نشر الوعي بها في أوساط الجماهير بشتى الوسائل والسبل المتاحة.

أما المهمة الثانية فهي العمل على تنظيم حملات متتابعة وأنشطة مستمرة لمقاومة أنواع الأخلاق والسلوكيات السيئة التي يسببها العيش في هذا الزمان؛ حيث المحرّك الأساس لسلوك البشر هو المادة والمتعة واللهو والإرواء المباشر للرغبات. وسيكون على تلك اللجان أيضًا متابعة التقصير في الواجبات الشرعية والخلل في التوصل الاجتماعي وما شابه ذلك مما هو مشاهد اليوم.

نحن في حاجة إلى جمعيات تتابع إعراض الشباب عن الذهاب إلى صلاة الجماعة في المساجد والإعراض عن القراءة واقتناء الكتاب، وجمعيات تتابع التغيرات الثقافية والسلوكية؛ مثل: الإدمان على التدخين والخمور والمخدرات والإسراف في الإنفاق وسوء استخدام الموارد مثل الماء والكهرباء؛ بالإضافة إلى العادات الشخصية السلبية؛ مثل: السهر والنوم المتأخر والأكل في المطاعم والبدانة واستخدام المنبهات والمنشطات.. إن هذا ما هو إلّا نماذج محدودة للأشياء الكثيرة التي تحدد نوعية الحياة لدى الأمة والتي تحتاج إلى الاهتمام.

السؤال المطروح هنا هو: **لمن نقوم بتوجيه هذا الكلام؟**.

الحقيقة أنني أوجه هذا الكلام لكل أولئك الذين يملكون الوعي والغيرة على مستقبل هذه الأمة، وهم بحمد الله كثر. الأمة تملك اليوم ملايين الشباب التوّاقين لعمل شيء إيجابي يصب في المصلحة العامة، وإن على الكهول والشيوخ أن يوفروا لهم الأطر والمؤسسات والجمعيات التي يتمكنون من خلالها من عمل شيء جيد.

إن رصد الواقع وقراءته عن طريق المسح والإحصاء والاستبيان عمل كبير وحيوي في هذا المشروع، وإن في إمكان مجموعة مكونة من خمسة شباب أن تقوم بعمل مسحي منظّم ومنهجي لظاهرة من الظواهر تحت إشراف أستاذ متخصص، ثم تقوم بنشر نتائج ذلك المسح على (الإنترنت) وغيره من أجل إيقاظ وعي الناس ودفعهم للاهتمام بتلك الظاهرة والتعامل معها بما يلائم. ولا بد من التنسيق مع الجهات الإعلامية والتربوية في كل خطوة من خطوات مشروع (نوعية الحياة).

إن الإصلاح الذي تحتاج إليه الأمة له ألف رأس وألف ذراع وألف ذيل، وإن من المهم أن نمتلك القناعة بأن التقدم الشامل لا يتم من خلال عمل كبير يقوم به فلان أو فلان أو هذه الدولة أو تلك.. وإنما يتم من خلال ملايين المبادرات الصغيرة التي تصدر عن ملايين الأبطال الصغار. وأعتقد أننا نستطيع أن نتعلم من الغرب في هذا الشأن الكثير من الدروس البليغة والمفيدة.

التاريخ والتجديد

من المشهور بين الناس أننا نقرأ التاريخ من أجل الاستفادة من عظاته ودروسه، وحتى نتمكن من مقارنة أحوالنا بأحوال من سبقنا، فنزداد بصيرة وخبرة بما يجب أن نفعله، وبما يجب أن نتركه. وهذا المشهور لا شك في صحته، وإن كان من يستفيد من عبر التاريخ دائمًا قلة. لكن هناك لفهم التاريخ ووعي معطياته فوائد أخرى مهمة، في مسائل التربية والإبداع والتجديد واستشراف المستقبل والتعمّق في فهم العلوم.

ولعلي أشير إلى شيء من هذا عبر الملحوظات الآتية:

١ - الأمم العظيمة تستخدم التاريخ أداة للتوجيه وأداة للتربية؛ حيث تتخذ من إنجازات الآباء والأجداد ومن سير العظماء محفّزات على السمو والعطاء والاستقامة، وهذا إذا سلم من المبالغة والتهويل والقراءة المنحازة، يعد شيئًا مفيدًا وجيدًا. المربون والمعلمون والدعاة يختلفون اختلافًا واسعًا في توظيف ما يُعدّ محصلة معرفية وأخلاقية؛ فمنهم من يستخدم تلك الحصيلة للبرهنة على فضل السلف وانحطاط الخلف! ومنهم من يستخدمها من أجل تعليم الناشئة الإذعان للمجتمع والتكيف مع الظروف الحاضرة. وقليلون أولئك

الذين يوظفون المستخلصات التاريخية في إيقاظ الوعي وتدعيم الحس النقدي والحفز على الوصول إلى شيء جديد.

وسبب ضآلة هذا النوع من التربية والتعليم يعود إلى أننا حين نقرأ التاريخ لا نتوقع منه أن يساعدنا في فهم واقعنا وتطوير هذا الواقع. إن كثيرًا من شبابنا منغمسون في تلبية الرغبات الآنية، أو غارقون في هموم تأمين الحاجات الضرورية. وبعض منهم حائر في أمره ومستقبله!.

ومن مهام التاريخ حين يُدرّس بطريقة صحيحة أن يساعد الناشئة على الانفصال عن الواقع، وأن ينقذهم من الضياع في معطياته. إن التاريخ يدرّس الآن على أنه سلسلة من الوقائع الغابرة، فيها الخير وفيها الشر. والمفروض أن يتلقى الشباب أحداث التاريخ عبر سرد متماسك، يربط المعاصرين بأسلافهم، ويسلط الضوء على سلسلة التطورات الإيجابية والسلبية التي صنعت الفرق بين مرحلة ومرحلة وبين جيل وجيل.

هذا يتطلب أن ندرس مع التاريخ فلسفته وفقهه، وأن نثير الأسئلة حول أسباب وقائعه وأحداثه، ونبحث عن العلل والمقدمات والجذور، ونكتشف سنن اللّٰه - جلَّ وعلا - في الاجتماع البشري، ونجلو طبيعة النفس البشرية في إقبالها وإدبارها.

إن التاريخ حين يُدرّس بهذه الطريقة، يُحسّن مستوى البصيرة لدى المتعلمين، ويُمكّنهم من امتلاك الأدوات التي

ينقدون بها الواقع الذي يعيشون فيه عوضًا عن أن ينجرفوا مع تياراته العاتية من غير أي قدرة على التأبي والممانعة. إن نقد الواقع يساعدنا على بلورة ملامح الهوية التي تميزنا من غيرنا، كما أنه يفتح السبيل أمام تطوير هذا الواقع وإخراجه من سياق التداعيات والتحولات العمياء التي تصنعها العولمة بإمكاناتها الهائلة.

٢ - إن الهم الذي يسيطر على المدارس والجامعات اليوم هو إعداد خريجيها لسوق العمل، أي مساعدتهم على أن يكرسوا عقولهم وطاقاتهم، وأن يكيفوا اتجاهاتهم وميولهم مع ما يساعدهم على كسب لقمة العيش، أو بعبارة أخرى تعدّهم لأن يكونوا مسمارًا صالحًا في الآلة الكبرى التي يديرها رجال المال والأعمال. وهذا الاتجاه في التعليم مطلوب وإيجابي، لكن ينبغي أن نكون على وعي بالتأثيرات الجانبية السيئة لهذا التوجه في التعليم وفي إعداد الناشئة للحياة.

إننا حين نعدّ الأجيال للتكيف مع سوق العمل عن طريق تلقينهم معلومات تجعل منهم أشخاصًا تقنيين تنفيذيين - كما يجري الآن - فإننا نجعل منهم أشخاصًا عاجزين عن المساهمة في إيقاف التدهور الذي تتعرض له مجتمعاتهم.

إن التطور الاجتماعي يتم بطريقة غير واعية، ومن مهام المثقفين - على اختلاف درجاتهم - أن يساعدوا الأمة على تجاوز الأزمات الكبرى التي تتعرض لها من خلال تراكم

الأخطاء والخطايا الصغيرة والكبيرة للأجيال المتعاقبة.
ولا يستطيع المثقفون والمتعلمون عامة القيام بهذا الدور إلّا إذا تلقوا العلم على أنه تحرير وعتق من الاستكانة للقوى الغاشمة، ومن التقليد الأعمى للآباء والأجداد، وإلاّ إذا تلقوه على أنه وسيلة للتكيف مع الواقع ووسيلة لترشيده وتحسينه أيضًا. ومما يساعد في بلوغ هذا العمل على إضفاء الطابع الأخلاقي والإنساني على المعرفة والتقنية؛ فالعلم للعمل ولخدمة الناس ونصحهم وتصحيح أوضاعهم.

يجب أن نعلِّم الناشئة الدور التاريخي الذي قام به العلم في بناء الأمة وتشييد الحضارة الإسلامية؛ بالإضافة إلى توضيح دور العلم في تكوين الرجال العظام على امتداد التاريخ الإسلامي.

يجب أن يطّلع الناشئة على تاريخ الحركات الإصلاحية الكبرى، وعلى العوامل والأسباب التي تساعد على نشوء الأفكار العظيمة ذات الطبيعة الاختراقية، إذا ما كنا نريد للتاريخ وللعلم أن يُسهما في تجديد الأمة نحو الأمام.

٣ - في بنائنا المعرفي ثغرات واضحة، لا تخطئها عين الناقد، وتلك الثغرات كثيرة، ولعل من أهمها: إهمال تاريخ العلوم، وإهمال اكتشاف مقاصد التشريع؛ بالإضافة إلى التقصير الظاهر في التعرّف على سنن اللّه - تعالى - في الخلق، والتقصير في معرفة طبائع الأشياء؛ ولا سيما الطبيعة

البشرية. إن العلوم الإنسانية والعلوم البحتة كذلك تقدّم للناشئة مبتورة من بعدها التاريخي، فتبدو وكأنها تكونت منذ البداية على الصورة التي عليها الآن؛ حيث لا يعرف الدارسون تاريخ نشوئها ولا الأطوار التي مرّت فيها، كما لا يعرفون شيئًا ذا قيمة عن العلماء الكبار الذين تركوا بصماتهم عليها.

ولهذا فإنك لا تشعر أن ما نقدمه في المدارس والجامعات يبني عقولًا منهجية، أو يبني شخصيات تتمتع بالاستقلال الفكري والمعرفي، وما ذلك إلّا بسبب شعورهم بضآلة ما يتلقونه وغموضه.

إننا في الحقيقة لا نستطيع أن نفهم أي علم على نحو عميق إلّا إذا فهمنا تاريخه وخارطة تكوينه وتحولاته. ومن المؤسف أننا لا نبذل جهدًا يذكر في شرح كيفية تحدر الجديد من القديم، وليس لدينا أي جامعة أو كلية أو معهد يقدّم شيئًا متميزًا في تاريخ أي علم من العلوم! إن التجديد المعرفي والاجتماعي سيكون صعبًا من غير الاطلاع على الأطوار السابقة لعلومنا وأوضاعنا.

إننا من خلال قراءة تاريخ العلوم نتعرف بواعث الاجتهاد وبيئاته والعقبات التي تواجهه، كما أننا ننمي لدينا حاسة المقارنة، ونكتسب المزيد من المرونة الذهنية، والمزيد من

القدرة على رؤية الأشياء من زوايا مختلفة. وقد صدق من قال: « إذا أردت أن تعرف المستقبل فانظر إلى الماضي » حيث تمكننا معرفة الماضي من اكتشاف السنن التي تجسر العلاقة بين ما فات وبين ما هو آت. ومن خلال هذا وذاك نكتشف آفاقًا جديدة للتطوير، ونفتح حقولًا جديدة للممارسة.

وقد آن الأوان للعمل على استدراك بعض ما فات والعمل على توظيف التاريخ في تغيير نوعية الحياة لمئات الملايين من المسلمين.

* * *

السيرة الذاتية للمؤلف

أ. د. عبد الكريم بكار.

حصل على البكالوريوس من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر (١٣٩٣هـ/١٩٧٣م)، وعلى الماجستير في عام: (١٣٩٥هـ/١٩٧٥م)، والدكتوراه في عام: (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م) من قسم أصول اللغة بالكلية نفسها بجامعة الأزهر، وكان عنوان رسالة الدكتوراه: « الأصوات واللهجات في قراءة الكسائي ».

قاد د. عبد الكريم بكار مسيرة أكاديمية طويلة، دامت (٢٦ عامًا) بدأت عام: (١٣٩٦هـ/١٩٧٦م) في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في القصيم (السعودية)، لينتقل بعدها إلى جامعة الملك خالد في أبها في عام: (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، حصل خلالها على درجة الأستاذية في عام: (١٤١٢هـ/١٩٩٢م) وليبقى فيها حتى استقال منها عام: (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م)؛ ليتفرغ للتأليف والعمل الثقافي والفكري، حيث يقيم في العاصمة السعودية الرياض.

وتركزت المسيرة الأكاديمية للدكتور بكار على تدريس اللُّغويات، والتي شملت مواد المعاجم اللُّغوية، دلالة الألفاظ، الأصوات اللغوية، اللهجات العربية، القراءات القرآنية واللهجات، النحو، الصرف، المدارس النحوية وتاريخ النحو. كما قدم د. بكار خلال تلك الفترة عددًا من الأبحاث والكتب المتخصصة والتعليمية في مجال اللُّغويات، وأسهم في النشاط الأكاديمي للجامعات التي عمل بها من خلال رئاسته لعدد كبير من اللجان العلمية، ورئاسته لقسم النحو والصرف وفقه اللغة لعدة سنوات، ومساهمته في وضع المناهج، والإشراف على البحوث، وتحكيم الدراسات العلمية.

وللدكتور بكار نشاط مكثف على صعيد المحاضرات، والندوات الفكرية

والثقافية والدورات التدريبية، وشارك في المئات منها في المملكة العربية السعودية والكويت وقطر والبحرين وتركيا ولبنان ومصر والأردن وماليزيا والسودان. كما يقدم حاليًا برنامجًا أسبوعيًا في قناة (دليل الإسلامية) باسم: « آفاق حضارية »، وبرنامجًا شهريًا بقناة المجد باسم: « معالي »، وكان د. بكار قد قدم برنامجًا تلفزيونيًا أسبوعيًا في قناة (المجد) باسم: « دروب النهضة » لمدة عامين، وبرنامجًا إذاعيًا أسبوعيًا باسم: « بناء العقل في القرآن الكريم »، وبرنامجًا إذاعيًا أسبوعيًا آخر باسم: « العلاقات الإنسانية في المجتمع الإسلامي » استمرا لمدة سنتين بإذاعة القرآن الكريم بالرياض، بالإضافة لاستضافته في برامج عديدة على قناة (الرسالة)، وقناة (اقرأ)، وقناة (الناس)، والتلفزيون السعودي.

ويحرص د. بكار على أن يقدم رؤاه الفكرية والتربوية من خلال مشاركته الواسعة في مختلف الصحف، والمجلات العربية المتخصصة والعامة؛ حيث يكتب د. بكار مقالات دورية في مجلة « البيان » اللندنية ومجلة « الإسلام اليوم » الشهرية، ومجلة « مهارتي » الصادرة عن جامعة الملك سعود وموقع « الإسلام اليوم »، كما يشارك باستمرار منذ أكثر من عشرين سنة بمقالاته ودراساته في عدد من المجلات الدورية الأخرى.

ود. بكار عضو في المجلس التأسيسي للهيئة العالمية للإعلام الإسلامي التابعة لرابطة العالم الإسلامي (الرياض)، وعضو الهيئة الاستشارية بمجلة « الإسلام اليوم » (الرياض)، وعضو الهيئة التأسيسية لقناة (دليل)، وعضو في مجلس الأمناء لقناة (سنا) الفضائية (عمان).

ويعد د. بكار أحد المؤلفين البارزين في مجالات التربية والفكر الإسلامي؛ حيث يسعى إلى تقديم طرح مؤصل ومجدد لمختلف القضايا ذات العلاقة بالحضارة الإسلامية، وقضايا النهضة والفكر والتربية، والعمل الدعوي.

وللدكتور بكار حوالي ثلاثين كتابًا في هذا المجال؛ لقي الكثير منها رواجًا واسعًا في مختلف دول العالم العربي، كما قدم د. بكار للمكتبة الصوتية أكثر من مائة ساعة صوتية مسجلة ومنشورة في مكتبات التسجيلات الصوتية.

وفيما يلي قائمة بالكتب والدراسات الأكاديمية المتخصصة:

١ - أصول توجيه القراءات ومذاهب النحويين فيها حتى نهاية القرن الرابع الهجري، بحث غير منشور، (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

٢ - ابن مجاهد شيخ قراء بغداد، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية بالقصيم، (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)

٣ - تحقيق كتاب: « القواعد والإشارات في أصول القراءات »، للقاضي أحمد بن عمر الحموي، دار القلم، دمشق (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

٤ - الصفوة من القواعد الإعرابية، دار القلم، دمشق (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).

٥ - تحقيق كتاب: « رد الانتقاد على الشافعي في اللغة » للإمام البيهقي، دار البخاري، بريدة، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

٦ - أثر القراءات السبع في تطور التفكير اللغوي، دار القلم، دمشق (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).

٧ - المهدوي ومنهجه في كتابه الموضح، دار القلم، دمشق، (١٤١١هـ/ ١٩٩١م).

٨ - ابن عباس مؤسس علوم العربية، دار السوادي، جدة، (١٤١١هـ/ ١٩٩١م).

٩ - دراسة لإنشاء مركز لتعليم اللغة العربية، كلية اللغة العربية بـ « أبها »، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).

أمّا الكتب التربوية والفكرية الصادرة للدكتور بكار؛ فمنها الكتب التالية:

١ - فصول في التفكير الموضوعي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية (١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).

٢ - نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي، دار المسلم، الرياض، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م).

٣ - من أجل انطلاقة حضارية شاملة، دار المسلم، الرياض، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م).

٤ - مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، دار المسلم، الرياض، (١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م).

٥ - مدخل إلى التنمية المتكاملة، دار المسلم، الرياض، (١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م).

٦ - في إشراقة آية، دار هجر، أبها (١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

٧ - من أجل شباب جديد، بحث منشور في وقائع المؤتمر السنوي للندوة العالمية للشباب الإسلامي، عمّان، (١٤١٨هـ/١٩٩٨م).

٨ - حول التربية والتعليم، دار المسلم، الرياض، (١٤١٩هـ/١٩٩٩م).

٩ - العولمة، دار الأعلام، عمّان، (١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م).

١٠ - القراءة المثمرة، دار القلم، دمشق، (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

١١ - العيش في الزمان الصعب، دار القلم، دمشق، (١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م).

١٢ - هي هكذا، دار السلام، القاهرة، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).

١٣ - القواعد العشر، دار السلام، القاهرة، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م)

١٤ - مسار الأسرة، دار السلام، القاهرة، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).

١٥ - التواصل الأسري، دار السلام، القاهرة، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).

١٦ - تكوين المفكر: خطوات عملية، دار السلام، القاهرة (١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م).

* * *

الكتاب في سطور

إن الوقوف على حقيقة الواقع الفكري لدى الإنسان، هو السبيل الوحيد لإدراك الحقائق ومعرفة مدى البناء الفكري وما يجب لإدارة الخارطة الفكرية داخل المنظومة والإطار الجماعي، هذا الإدراك يتوقف على مدى الاتزان في التفكير، وعلى عدم التنميط والقولبة.

والتفكير سلاح ذو حدين؛ فحين يبدع يصنع المعجزة ويحقق الثروة والقوة، وحين يتحجر يولِّد العجز والخواء والجهل والعماء؛ ولذا وجب علينا التعامل مع المستجدات في إطار من المعاصرة باعتدال؛ حتى لا نضيع في غياهب التضليل والتبسيط والتهوين والتلفيق والتزييف.

الناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية
هاتف: ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٥٠٥٤٦٤٢
فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (+٢٠٢)
الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (+٢٠٣)
www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com


ISBN: 978-977-342-891-4
9 789773 428914